قصص

يوحنا الأمريكى
يبشر فى الحانه

عبد العال الحمامصى



٢٠٠٦



يوحنا الأمريكى

يبشر فى الحانه



الإشراف العام : محمد الحسينى

المراسـلات :

٢١ ش الصناديلى بالجيزة

١٧ ش العطار بالجيزة

ت : ٥٧١٢٦١٨

موبايل : ٠١٠٢٣١٣٥٧٩ ـ ٠١٢٤٦٢٠١٦٠

الموقع الإلكترونى :

www.ostazi.org/darnefro

البريد الإلكترونى :

dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب : يوحنا الأمريكى

اسم المؤلف : عبد العال الحماصى

رقم الإيداع : ٢٤٣٢٧ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : 977-6196-15-5

تصميم الغلاف : كامل جرافيك

جمع إلكترونى : سوفت أيماج

الطبعة الأولى
٢٠٠٦

الوداعة والعنف

تحولات البناء عند عبدالعال الحمامصى

لايكاد المرء يخطئ فى تخمين البيئة الاجتماعية التى أنتجت قصص عبد العال الحمامصى . فملامح الواقع الاجتماعى - الصعيدى تبرز بجلاء ناصع فى كل أعماله دون استثناء ، حتى لو كانت القصة تتحدث عن فرنسا - باريس أثناء الحرب العالمية الثانية ، كما فى قصته « رجل لفرنسا » من مجموعة « فرحة الأجراس» ٢٠٠٣ أو عن حى ها رلم بنيويورك - الولايات المتحدة ، كما فى قصة « يوحنا يبشر فى الحانة» من مجموعة « هذا الصوت وآخرون » ١٩٨٠ فالرجل فى القصتين ، هو ذلك الحالم الوديع الباحث عن عالم خال من العنف والقمع والاستغلال ، فى مواجهة عالم تحكمه تقاليد العنف والبطش (سوف يأتى الحديث عن هاتين القصتين فيما بعد) . وهى ذات البنية الصراعية التى تحكم بناء باقى قصص عبد العال الحمامصى فى مجموعاته الأربع .

غير أن قص هذا الكاتب الكبير الذى يبدأ من عام ١٩٥٤ ويستمر حتى يومنا هذا (أطال الله فى عمره) لم يأت ، بالطبع ، على ذات النسق البنائى الأول ، بل تنوع وتغير وتطور مع مرور السنوات ، وليس هذا فقط التطور الفنى الطبيعى للكاتب الذى أزداد خبرة ورصانة ونفاذا رؤيويا ولكن أيضا بسبب تغير وتبدل الموجات الأدبية السائدة ، كل فى زمنها ، ناهيك عن تغير الظروف التاريخية وأسئلة

الواقع الاجتماعى .

فإذا كانت مجموعة« فرحة الأجراس» التى تضم البواكير الأولى قد جاءت مفعمة بهذه الدفعات الانفعالية - الوجدانية التى سيطرت على اختيارات (انجيلا) بطلة قصة « رجل فرنسا » وحسمت مصيرها فى النهاية متنازلة عن حبها الجارف لفرانك بعد عودته سالما بينما كانت تظن أنه قد استشهد فى الحرب ومن ثم دخلت إلى الدير راهبة ، فإذا به عندما يطلب منها العودة إلى الحياة ، فإنها ترفض قائلة بأنها لاتستطيع الفكاك مما أرادته لها الأقدار ، فإننا نلمح بعد اكلاسيكيا مختلطا بأبعاد رومانسية لاتخطئها العين ، بينما تتحول هذه الرومانسية إلى رؤية انسانية دفاقة بالمعانى الأسيانة المحتجة على واقع اجتماعى لايرحم كما فى قصة «للكتاكيت أجنحه» حيث تضحى سعاد بشبابها ومشاعرها فى الحب وحقها فى الزواج من أجل رعاية أخوتها الأيتام ، حتى إذا نبتت لهم « أجنحه» وصاروا قادرين على الاستقلال بحياتهم كان قطار الزواج قد فاتها وأصبحت « رجل البيت » الذى لم يعد الأنثى اللافتة التى كانتها من قبل والتى تذكرها بها أختها الصغرى التى تتزوج الآن .

حتى إذا جئنا إلى مجموعة « هذا الصوت وآخرون» وجدنا هذا المنحى الانسانى - الاجتماعى يتحول إلى رؤية سياسية رمزية ذات طابع غنائي - انشادى ، وربما وجودى متمرد على عبث الواقع - سواء الأمريكى العدوانى المتورط فى مستنقع فيتنام ، كما فى قصة « يوحنا يبشر فى الحانة» أو الواقع المتخيل الذى تملأه أشباح المبتزين والمطاردين على النمط الكافكاوى كما فى قصة « الساعة الخامسة والعشرون»

غير إننا فى المجموعة الأخيرة « بئر الأحباش» تلمح عودة قوية جلية لاتكاد تشوبها شائبة إلي القصة الواقعية ـ الاجتماعية التى تقوم على تعليل العذاب الانسانى برصد بؤس الواقع الاجتماعى وقسوة تقاليده. حيث تتحرك القصة على محور الصراع الجدلى بين الذات الفردة بمكوناتها الروحية والنفسية الخاصة وبين الواقع بعموميته فإذا بالمصائر تتقرر بناء على حصيلة هذا الصراع ، وليس على أساس إرادة الأقدار ولاعلى أساس الاختيارات الانفعالية المجردة ، كما أنها جاءت على نحو كنائى ، يكاد يحاكى الواقع الذى يتم تصويره حرفيا فالأسماء والأماكن والعوالم الداخلية للشخصيات وهيئاتها الخارجية والجو Milliow كل ذلك منصوص عليه دون لبس أو اختزال حتى اللغةوالحوار .. الخ ..

من هنا نلاحظ أن المجموعة الأخيرة « بئر الأحباش » يمكن أن تمثل استمرار متطور المجموعة « للكتاكيت أجنحه» ويصبح ، من ثم ، جزء كبير من قصص مجموعة « هذا الصوت وآخرون» بمثابة جملة اعتراضية لاتكاد تنتمى إلى أعمال الكاتب وكأنه قد كتبها مجاراة لموجة كانت سائدة ، مثلما فعل توفيق الحكيم فى «يا طالع الشجرة» أو يوسف ادريس فى «الأورطى» .. ألخ . رغم احتوائها على ذات الأصالة التى تميز باقى أعمال الكاتب ، وذات البنية المركزية التى تنتظم أعماله بالكامل ، ألا وهى صراع الوداعة والعنف.

وسوف أحاول فيما يلى دراسة هذه المراحل على النحو التالى :

١ـ الرؤية الوجدانية العاطفية ـ قصة بلاخطئية.

٢ـ الرؤية الانسانية الاجتماعية ـ قصة العجوز وشجرة التوت.

٣-الرؤية الاستعارية -الرمزية السياسية - قصة الساعة الخامسة والعشرون

* * *

١-الرؤية الوجدانية العاطفية.

تتميز هذه الرؤية بأن الحدث وإن كان خارجيا ، أى يتم خارج ذات البطل الممثل للشخصية الرئيسية ، إلا أن أثره يفعل فعله فى وجدان البطل ويؤثر فى روحه ، بما يترتب عليه اختيارات الشخصية ، التى تنساق على نحو انفعالى الى اتجاه ربما لم تكن لتختاره لو كانت فى ظروف طبيعية ، يتحكم فيها المنطق والعقل . من هنا تتحدد مصائر شخصيات حفرت وجودها فى الآدب العالمى والعربى مثل « غادة الكاميليا» لألكسندردوماس وزينب » لمحمد حسين هيكل «وتاييس» لأناتول فرانس وجرنجوار ، بطل « أحدب نوتردام» لفيكتورهوجو وسيدة ، بطلة « نحن لانزرع الشوك» ليوسف السباعى « وأديب» لطه حسين . . الخ .

ولعل هذه الرؤية تتحق بجلاء فى معظم قصص مجموعة« فرحة الأجراس»

إن فرحة الأجراس هنا إنما هى فرحة السماء ، من حيث الدلالة الدينية القدسانية التى ينسجها انتساب هذه الأجراس لبيت الرب - الكنيسة ، وهى تمجد المحبة التى جعلت الأب هنرى يحنو على الطفل اللقيط الذى أسماه بطرس ، كما تمجد الحب الذى جمع بين هذا الفتى الذى جاء إلى الدنيا بلا جريرة وبين مريم الفتاة التى توهمت أنها تحب

شخصا آخر . ولكنها فطنت إلى أن الأخوة التى كانت بينهما إنما كانت تخفى الحب الحقيقى . ولعل البعض يتساءل عما يجعل كاتبا مثل الحمامصى يكتب قصة تدور أحداثها فى الكنيسة وبين مسيحيين ؟ غير أن الاجابة أنصع من أن تحتاج إلى البرهنة عليها ، فالقصد هو الاستعانة بمقولة المسيح (عليه السلام) أن الله محبة ، ومن ثم تصبح القضية هى تمجيد الحب ، وتمجيد المنحى الفروسى الذى سلكه الأب هنرى وهو ذات المنحى الذى سلكه بطرس ومريم . كل منهم قد فعل ذلك مندفعا بعواطفه وانفعالاته . ورغم نبل ذلك المسلك إلا أنه يجعل العواطف هى المحرك وهى صانعة المصائر . نفس هذا الاستخدام المستوحى لمقولات وقيم دينية مسيحية نلاحظة فى قصص« العذراء الداعرة» « وبلاخطيئة» «وأطفال الله» « ويوحنا يبشر فى الحانة» .. الخ حيث يصبح استدعاء الدال الدينى المسيحى بمثابة توظيف لعلامة ذات طابع أيقونى يشير إلى معانى الوداعة والحب فى عالم يحكمه العنف والوحشيّة» ومن ثم ، يصبح الصراع بينهما بمثابة صراع بين الخير والشر على النحو المطلق والكونى . وهنا تأتى قصة « بلاخطيئة» التى تكاد يذكر عنوانها بذات المقولة المسيحية « من كان منكم بلاخطئية فيلرمها بحجر » فى معرض حديثه عن مريم المجدلية .

وهو ما يتأكد من قول رواى القصة الذى أرسلته أمه ليضع اكليلا من الزهور على قبر السفاح حسن الدرنكى ، حيث يقابل هناك نجوى بائعة الهوى التى كانت أيضا تسفح الدموع على ذات القبر . وبعد أن كان يحتقرها وينظر إليها على أنها مجرد جسد إذابه بعد أن يسمع دفاعها عن نفسها وعن السفاح الذى كانت تحبه لأنه كان يعاملها كانسانه تشعر بالكرامة وتمتلك مشاعر انسانية ، وكان سيتزوجها ،

ملقية باللائمة على المجتمع الذى جنى عليها وعلى السفاح ، إذابه (أى الراوى المشارك) يقرر أن يتزوجها مبديا كل التعاطف معها والغفران لها .. وردا على سؤالها : وماذا يقول الناس عنك ؟ يقول :

« من كان فيهم بلاخطيئة فليرجمنا » للدلالة على أن كل الذين يدينون مسلكها إنما هم من دفعوها إليه - وضمنا - كل من أدانوا مسلك حسن الدرنكى هم من جعلوه كذلك . لقد كانا كلاهما - العاهرة والسفاح - يتقاضيان ، بمسلكهما المشين ذاك ، « من المجتمع دينه (تقول نجوى) فعندما يبحث الانسان عن حياة متواضعة شريفة مكفولة ويحول المجتمع بينه وبين ذلك ليس من الغريب أن يكون معول هدم يسخره الشيطان » فرحة الأجراس ص ٧٩

وهو ذات المعنى الذى يقابلنا على نحو ما ، فى قصة « قاتل لوجه الله» من مجموعة « بئر الأحباش » وأيضا - وإن كان على نحو آخر - فى قصة « المحاكمة» فى مجموعة « للكتاكيت أجنحه» « والعذراء الداعرة» فى مجموعة « فرحة الأجراس» .

إلا أن ما يهمنا هنا هو مسلك البطل الذى تحول من النقيض إلى النقيض حيث بدأ متهكما معاديا مستتهترا ثم تحول إلى متعاطف ، بل متبن لهذه التى ألفاها بائسة مجنيا عليها . إن هذا التحول إنما هو تحول عاطفى انفعالى وجدانى ، يمثل القرار لجواب سابق لايقل عنه انفعالية وعاطفية وهو مسلك الادانة والنظر إليها بعين العريزة ويعضد التحول أن القصة تسوق هذا السفاح على أنه فى البداية يساعد المحتاجين سرا وخاصة أم الراوى التى لم تفصح عما فعله ثم يأتى قول نجوى - العاهرة - معضدا حيث أنه ..« لم يكن من طرازكم (..) إنه الانسان الوحيد

الذى وهبته قلبى ولم ينتهك جسدى وهو السفاك ربيب الجريمة» ص ٧٨ . ولم توضح لنا القصة سبب أنه لم ينتهك جسدها بينما هو السفاك ربيب الجريمة . إن القصة تتحدث عن الغفران ولم تتحدث عن الجريمة وبواعثها كما أنها لاتعلل التحول السلوكى للسفاك ، إنه ذلك المنحى العاطفى الوجدانى - الانفعالى الذى يحكم سلوك الشخصيات ويحدد مصائرها .

إن الحدث فى هذه القصة لايأتى دفعة واحدة ، بل يأتى على نحو تدريجى يبدأ من أرضية محايدة ثم يأخذ فى التحدد والتشخصن ، جزء فجزءً ، ففى البداية ، تسوق القصة أن المدينة تتحدث شامتة عن موت - مصرع حسن الدرنكى ، ثم نعرف سبب ذلك وهو أنه جعلها (أى المدينة) مسرحا لجرائم بشعة حتى إن امام المسجد رفض الصلاة على جثمانه ، ومن هنا كان مبعث الدهشة فى أن ترجو أم الراوى - البطل أن يذهب إلى المقابر ليضع الأزهار على قبره . والسبب أنه قد أسدى لها خدمات لم تفصح عنها . وهنا نلاحظ تناقضا قويا بين ظاهر يعرفه العامة والكافة، وهو الشر الذى يمثله الدرنكى ، وباطنه الذى لايعرفه إلا بعض الخواص مثل أم البطل ونجوى العاهرة ، وبما غيرهما أيضا ألا وهو الخير والانسانية ، فما سر هدا التناقض ، وما الداعى إلى الشر طالما أن طبيعته الداخلية خيرة ؟ إن القصة تجيب عن ذلك منذ البداية فى قول البطل : ..« إن هذا مجرم له العذر فى أن يكون مسلكه نحو الناس متسما بالجفوة والارهاب .. فالبشر الذين يضنون بالغفران حتى لميت أصبح فى ذمة السماء سيرغمون الانسان على أن يكون شيطانا ص (٧٠) الأعمال هكذا يصبح الناس هم المسئولون عن الشر وليس الذى اقترفه فى حقهم . ومن هنا يصبح القول الذى جاء فى بداية

القصة «المدينة تتحدث شامته » بمثابة تمهيد لهذا الحكم الذى لم يستسن رجل الدين الذى رفض الصلاة على الجثمان ، كما ورد قبل قليل . ثم تتنقل القصة بعد ذلك إلى استعراض مشهد المقابر وجلال الموت ومهابتة ومايثيره فى النفس من من تأملات حول عزرائيل والفراق والاحبة الذين رحلوا ، ثم هناك حارس المقابر الذى لاينطق إلا قليلا وكأنه ميتٌ من كثرة مخالفته للموتى وهو الذى سيقوده إلى حيث القبر وهناك يواجه لأول مرة فى القصة نجوى التى كانت تجلس بجوار القبر . وهنا تبدأ القصة الحقيقية ، حيث يبدأ شعوره بالمقت والرغبة فى الاستمتاع بها ، فى نفس الوقت ، ثم لايلبث أن يتحول إلى احترامها واكبارها والغفران لها بل تقرير الزواج منها غير مبال برأى أحد كان البعض ينظر إلينا ساخطا لاعنا فالبعض ينظر إلينا حاسدا ، وجل النظرات بطل منها الاحتقار وأمام جميع الناس طرقت باب المأذون» ص ٨١ .

إن الموت هنا هو الذى يقود إلى الرحمة والغفران وكأنه بذلك أراد أن يفلت من المسلك الذى انتقده سابقا . وهنا يصبح زواجه من نجوى على غير اتفاق مع الآخرين بمثابة تطبيق لمشاعر طرحها منذ البداية . ولعلنا نلاحظ أن لقاءه بنجوى لم يتم إلافى منتصف القصة تقريبا ، بينما دار الجزء الأول حول حسن الدرنكى . وهنا من حقنا أن نستنتج أن نجوى هى الوجه الآخر لحسن الدرنكى وكلاهما ضحية للمجتمع الذى دفعهما إلى هذا الاتجاه . ورغم أننا لم نعرف ما دفع الدرنكى إلى الجريمة ، إلا أننا يمكننا أن ندرك بالقياس ، أنه كان ضحية رغم أنه قاتل وهذا البناء المتدرج للحدث والمختزل للوقائع ، وفى نفس الوقت الطارح

للمشاعر والتأملات هو الذى يجعلنا نتعامل مع القصة بعواطفنا لابعقولنا ، متطابقين فى ذلك مع جميع أبطالها . فلم تجب القصة ، نصيبه عن أى من أسئلتنا العقلية الى سقناها قبل قليل ، اللهم الا ضمن عبارة نجوى « تبالكم .. لقد جعلتم منه مجرما » ص ٧٦ وهى النغمة التى تتأكد وتتكرر على طول القصة . فالمجتمع هو المجرم والفرد ليس أكثر من مفعول به بائس يتلقى قدره دون مقاومة : اللهم إلا النواح وبث اللواعج ، أو الهروب إلى التهويمات.

* * *

٢ـ الرؤية الانسانية الاجتماعية

لقد كان التحول إلى المنحى الانسالىّ هو الأفق الوحيد الذى يمكن من خلاله أن تتطور الرومانسية ، غير أن الفارق هنا أن الفرد لم يعد مجرد مفعول به ، بل صار فاعلا أيضا فى مقابل المجتمع ، وحصيلة الفعلين فى تناقضهما الجدلى هى التى تحدد مصير الشخصية ، ولعل ذلك يتبدى بوضوح فى قصة« العجوز وشجرة التوت» كما فى الغالبية العظمى من قصص عبد العال الحمامصى.

إن ثنائية الوداعة والعنف تفعل فعلها هنا بقوة بالغة الايحاء ، فإذا كانت فى قصة « بلاخطيئة» تدور حول عنف المجتمع الذى يقهر الفرد فى وداعته ويحوله إلى مجرم وعاهرة ، محولا إياهما عن حقيقتها الانسانية الوادعة ـ المفترضة ، فانه هنا يقوم بقهر رجل عجوز يتمسك بكوخ يقع بجوار بركة وشجرة توت ان المفارقة التى تقوم عليها هذه القصة تكمن فى أن الأمر يبدو وكأن هذا الرجل قد كتب عليه أن يكون في حرب دائمة مع المدينة ـ المجتمع ، فعندما كان فى شبابه لصا

شرسا ، بل شيخ منسر ، أذل البلدة ودوخها ، حتى إذا تاب وبدا يعتاش من عمل شريف يتمثل فى جدل الليف وصنع المقاطف ، إذا به حينئذ يتحول إلى معّوق لخير البلدة وتقدمها حيث لم تجد البدلية مكانا لتفيح لانسيج إلا المكان الذى يقوم عليه كوخه هو بالذات بجوار شجرة التوت .

وهنا لايجد العجوز رشوان إلا أن يقاوم على نحو بدائي بقذف الطوب حتى يتهاوى ميتا من الا جهاد والحزن وهو العجوز المصدور بالربو والمحنى الظهر بفعل السنين .

إن قوة تأثير موقف العجوز رشوان تنبع من أنه قد أصبح بالفعل عنصرا نافعا فى المجتمع وهنا أصبح جزاءوه الاقصاء والازاحه . وكإن القصة كدأب باقى القصص ، تدين الواقع الاجتماعى الذى لايقبل من الفرد إلا الخضوع التام ، فإذا خرج عليه مجرما لعنه واذا عمل صالحا باستقلالية وأنفة وعزة نفس أقصاه . وهو فى الحالين (أى الفرد » يكون الضحية ، إلا أنه على غير ما رأينا فى القصة السابقة ، فإن عمل العجوز رشوان لم يكن الثأر من المجتمع ، بل كان الدفاع الايجابى عن حقه فى الحياة والسكن واستقلال الرأى ومن هنا تبدأ حربه العبثية مع العمدة والمهندس والرسمين . إن عدم التكافؤ هذا هو ما يمنح حربه جانبها البطولى الملحمى ، وهو وإن كان قد خسرها إلا أنه قد حقق موتا تراجيديا يجعله فى مقام الشهداء ذوى الموت النبيل . وقد كان جديرا به أن يستجيب ، إلا أنه اعتبر أن مكانه الذى يقيم فيه هوذاته نفسها . ومن ثم فإن كان ولابد أن يترك هذا المكان فلا مندوحة عن أن يترك الحياة نفسها .

وهنا تحشد القصة مجموعة هامة من الرموز والأحداث التى تقوى هذه الرؤية فكوخ العجوز رشوان يقبع بجوار شجرة توت وهى شجرة تسهب القصة فى وصف عراقتها وشبابها واتساع فيئها وحلاوة ثمارها تقول القصة :

« فالشجرة لم تهرم أبدا كغيرها من الأشجار ، وفى الشتاء لاتتعرى أغصانها من الأوراق مثل كل الاشجار .. كما أن ثمارها غير الثمار الأخرى .. إن لها مذاق عسل النحل ..» ص ١٤٤ الأعمال

وهنا ينفتح الباب فى القصة على تأويلات عدة وهو أن هذه الشجرة حسب « العريف » الأعمى ما هى الا جنيه عشقت عم رشوان وتقمصت شكل الشجرة ، ومن ثم فلابد أن الجنية هى التى تضع الحلاوة فى ثمارها . ولقد أيد ذلك وقوى من اقناعيته أن الشجرة كانت معشوقة عم رشوان تقول القصة .. كانت حبيبته فعلا .. كنا نشاهده يربت على جذعها وينفض بملاءته التراب عن أغضانها .. بل كنا نراه يحدثها أحيانا ويسر اليها بكلام لانفهمه» ص ١٤٤الأعمال

وإذا عرفنا أن شجرة التوت فى الوجدان الشعبى ترمز إلى الخير والبقاء والعطاء ولعل إسم (توت) له علاقه بإله الخير (تحوتى) عند المصريين القدماء ، فيما يذهب البعض ، ومن هنا يصبح ارتباط عم رشوان بالشجرة الذى يبلغ أوجه فى هذا التصوير الغرائبى ، ارتباطا بمعان ودلالات أكثر منه مجرد ارتباط بشجرة من ضمن الأشجار ، إنها هنا شجرة خاصة متعينة ذات خصوصية وذا معنى ودلاله خاصين . الأمر الذى يمكن أن يحيل إلى توحدهما ـ الرجل والشجرة ـ فهو هى واقتلاعها متكافئ ومصاحب لاقتلاعه عن شخصيا . والمأساه العبثية

الظالمة تكمن فى أنهما معا رمزان للخير والعطاء

يتسق مع هذا المنحى رمز آخر ألا وهو الأطفال ، الذين تروى القصة على لسان أحدهم فهم الأصدقاء المقربون من عم رشوان وهم العشاق المتيمون ، بدورهم بشجرة التوت ويصادقون العجوز ، وكما تغمرهم شجرة التوت بثمارها الحلوة وفيئها يغمرهم العجوز بحبه وحدبه .. تقول القصة ..« العجوز يحبنا جميعا .. وأكثر لحظات حياته انبساطا تلك التى تكون فيها بقربه » ! وكثيرا ما كان يجمع لنا الثمار بنفسه .. ويوزعها علينا فننتخاطها منه فى مرح ومسرة .. وكثيرا ما كنا نوقعه فوق الأرض ونحن نتعارك معه ونتجاذبه .. ويحاول كل منا أن يأخذ منه أكبر نصيب . فكان يقهقه فى سعادة ويشتمنا فى حب بأسماء أمهاتنا اللواتى رباهن على يديه .. ص ١٤١ الأعمال

هؤلاء الأطفال أنفسهم هم الذين يلاقون القمع والقهر من شيخ الكتاب وأهاليهم . وإذا اعتبرنا أن الأطفال هنا يرمزون للبراءة والحياة والفرح، فإن ارتباط العجوز بهم وبشجرة التوت إنما هو ارتباط بكل ما هو خير وحب وانسانية .

هكذا تحشد القصة كل العناصر اللازمة لتبيان مدى طغيان وبغى الجماعة - المجتمع على الفرد المسالم الخيّر

إن بناء الحدث هنا يتم على غير ما جاء فى القصة السابقة ، فهو هنا بناء متعرج يقوم على التذكر والاسترجاع وخلط الحاضر بالماضى القريب والبعيد على السواء ، دون فجوات وصفية أو مونولوجية أوحجاجية ، إنه حدث لاهث ، متدفق ، ذو إيقاع بالغ السرعة .. تأمل : « ثم خارت قواه ولهثت أنفاسه ، وتوقف يسعل فى البداية ، ثم

مـديده يسند قلبـه ، لكنّه فـقـد توازنه فارتمى فوق الأرض منهـاراً » ص ١٤٦ الأعمال

إن هذه الجمل القـصـيرة القوية القـاطعة المتلاحقة هى التى خلقت حالة الصـراع الحامى الوطيس مع الحيـاة بكل جهامتها وقبحها . حيث يلعب الزمن هنا متـضـا فرامع المكان الكوخ والشـجـرة إلي جانب بناء الشـخـصـيـة دورا بالغ الانسـانيـة ، يلعب كل هؤلاء لعبـتـهم فى طرح مأساة إنسان أراد أن يعيش بشرف فلم يجد له مكانا .

وإذا كـان العنوان يتناص بقوة مع عنوان رواية هيمنجواى « العجوز والبحر »

فإن عجوز عبـد العال الحمـامصى وإن كـان يصـارع وجودا أقوى منه إلا أنه حتى فى هزيمتـه يصبح منتصـرا فقد مات موتا نبيلا يجعله أقرب للتراجيديا منه إلى الفجيعة .

٣ ـ الرؤية الرمزية الاستعارية .

لعل أهم ما يلفت النظر فى قصة « السـاعة الخامسة والعشرون » هو هذا العنوان ذاته ، فهو ، كما يبدو ، عنوان يقوم على مايسمى « بلاغة الاستحالة » مثل « بيـضة الديك » وما أشـبه . والهـدف من هذه البلاغـة هو إضـفـاء جـو من المبـالغة أو تحقـيق الدهشـة بما يفـيـد سـبـوغ الدلالة .. وغـيـر ذلك . فـعـدد سـاعـات اليـوم كـمـا هو مـعـروف أربـع وعـشـرون ، ولايوجد فعليا أو عقليا ـ منطقيا ـ ما يسمى الساعة الخامسة والعشرون وهو الأمـر الذى يعنى أن الكاتـب ينقلنا إلى وضـعـيـة تصـورية ورؤيوية تتجاوز أو تتغابر وتتخالف مع ما هو معروف لدينا .. وضعيـة تصورية تمتلك منطقـها وقـانون حركـتهـا الخـاصين . والكاتـب اذ يفعل ذلك فإنه

يستخدم الخيال ليطرح مخيالا جديدا مستقلا بذاته ومكتفيا بعناصره، وإن كان يرتكز فى دلالته وبنيته الشفرية على هذه المخالفة والمغايرة ذاتيهما . هو ، إذن ، لم يبتعد كثيرا عن الواقع المعاش ، ولكنه أراد أن يبتعد عنه ليزداد قربا منه ، أن يخالفه ليستبطنه ، أن يغايره ليسبر أغواره . إن عالم مفترض ، يقوم على المحاكاة الاستعارية . فإذا كانت الاستعارة ـ حسب علم البلاغة العربية ـ تقوم على تشبيه شئ بشئ ثم حذف المشبه به والاتيان بشئ من لوازمه للدلاله عليه بعد حذفه ، فانها (أى الاستعارة) وإن كانت تقوم على بنية تشبيهيه ، فإنها تنقل التصور إلى مناطق أكثر غورا من مجرد التشبية فى حال ذكر المشبه والمشبه به معا . تنقل التصور إلى منطقة مرائية تعنى المشبه به ولاتعنيه ، فى ذات الوقت الذى تعنى فيه المشبه ولاتعنيه . إنه عالم من التخوم والآكام ، عالم الممكن والمستحيل ، عالم الخيال الواقعى أو الواقع المتخيل ، أو الواقع الحقيقى عبر تخيله . هذه الحقيقة التى لايمكن لمسها أو تجسيدها إلا عبر الخيال .. عبر الابتعاد عنها من أجل سبر أغوارها . وهنا يقترب السردى والنثرى من الشعر محققا منطقة مشتركة بامتياز . ولقد تجسدت هذه الرؤية فى عدد كبير من الأعمال السردية العالمية والعربية ، فتجدها فى أعمال كافكا وجويس وفرچينيا وولف وآلان روب جرين .. الخ وتحققت فى ما سمى دراما اللامعقول عند يونسكو وبيكيت وآداموف ، كما تحققت فى الأدب العربى ، خاصة فى النصف الثانى من الستينات ، كما فى أعمال يوسف إدريس « الأورطى » فى مجموعة « لغة الآى أى» « وهى» فى مجموعة «بيت من لحم.. الخ كما هو هو أيضا فى أعمال محمد أبو

المعاطى أبو النجا فى قصص « ذلك الوجه وتلك الرائحة» ويوم بكى سيدنا الخضر .. الخ وعند محمد حافظ رجب فى « مخلوقات براد الشاى المغلى » .. الخ.

كما توجد فى أعمال عبد العال الحمامصى فى ما نشر فى الأعمال الكاملة تحت عنوان «أغنيات حزن وحلم» « ص ٢١٥ » فى قصص «قابيل يخنق القمر »«ويوحنا يبشر فى الحانة »«والساعة الخامسة والعشرون»

غير أن هذه القصة الأخيرة كانت من أكثر قصص عبد العال الحمامصى تحقيقا لهذه الوجهة وتجسيدا لعناصرها .

وهنا تجد ثنائية الوداعة والعنف أقصى درجات تألقها وفاعليتها ، إنها قصة الصراع الأزلى بين النور والظلمة ، بين القمع والحرية ، بين الضياع والخلاص . وهنا سنجد أسماء نوح والسيح والحسين وستجد هيروشيما وبنى أمية وكربلاء وفلسطين (ديرياسين) وسنجد تناصا بالغ الدلالة مع النصوص الدينية (كالأمانة التى عرضت على السماء والأرض وحملها الانسان)(سادوم) و« طوبى للمساكين) والخضر (هذا فراق بينى وبينك) .. الخ إنها دراما الصراع المطلق بين ارادة الانسان فى الانعتاق وارادة أعداء الحياة وأعداء الانسان

وفى سبيلها الى ذلك تقوم القصة برسم لوحة ذات طابع مشهدى مكتمل التفاصيل ، فهناك الظلام الدامس الذى ينشق عن ضوء خافت لايليث أن يتسع حتى يصبح متوهجا ثم يخفت من جديد ، مركزا الضوء على جثة ملقاة أسفل الجدار .. الخ (انظر ص ٢٢٣ ـ الأعمال) إن الاضاءة هنا توحى وكأننا إزاء عرض مسرحى يتم على خشبة ، وهو

الأمر الذى يحيل القضية برمتها إلى منحى التخييل لا التقرير وهو ما يتيح إمكانية حشد هذه الاسماء والأمكنة وجعل الحدث يتم على هذا الصعيد الفانتازى ، وإن لم يفتقد المصداقية والاقناعية وقوة الدلالة ، فتتحدث القصة عن امرأة تم قتلها ، بينما الطفل يحدق فى جثتها التى لم تفقد ، رغم الموت ، بهاءها وألق الحياة . وهذا الطفل سيصبح بعد قليل هو القضية ، ثم يهم بحمله رجل يحمل لوحة على شكل خريطة جغرافية ، دون أية تفصح القصة عن أية أسماء ولاتشرح كنه هذه الخريطة ولكننا نستطيع أن نفهم أن الصراع يدور حول وطن ، حول أرض تنتهك أو تغتصب أو تُقتل . (لاتنسى معنى الأم القتيلة) إن الخريطة هنا ليست إلا صكا أو دليلا يثبت وضعية جيوبوليتكية من نوع معين . وهنا تتم المطاردة اللاهثة بين حامل الخريطة والطفل وبين شخص يحمل غدارة يهدده بها ليستولى على الطفل ليمسح وعيه وذاكرته وعلى الخريطة ليفك شفرتها ويكشف أسرارها . ولقد قتل حامل الغدارة المرأة من قبل لأنها رفضت أن تعرفهم على سر شفرة هذه الخريطة . وهذه الخريطة لاتخص حاملها بل هى امانة عرضت عليه .. وحملها الانسان إن كان جسوراً .. فى تفعيل للنص الدينى الذى ، يضفى طابعا كونيا على المشهد برمته إن المزاوجة بين الخريطة والأمانة التى حملها الانسان ، يمنح الخريطة معنى جديدا يوحى بالوعى والمعرفة والقدرة على الاختيار والفعل ، ومن ثم يكتسب الصراع فى كل مشهد معنى جديدا أو بعدا جديدا يؤكد المعنى الأساسى ويُنَوعَ عليه . وهنا تنشق الأرض وتخرج منها أطياف تحمل جثة المرأة القتيلة وطفلها ، وينطفئ الضوء تماما بما يتيح الفرصة لحامل الخريطة لأن

يهرب . وفى محاولة لاضفاء الطابع التواصل والاستمرار لفعل المطاردة تعمل القصة على تكرار عبارة المطاردة بعد كل فقرة تتحدث عن تغير ألوان المشهد وملامحه مثل .. « عم الظلام حالكا » اندفع حامل الخريطة يجرى .. ركض .. حامل الغدارة خلفه بلاحقه ، » ثم «الشمس تسطع فى الأفق (..) حامل اللوحة يجرى .. حامل الغدارة يجرى فى أعقابة « ثم» المدينة مزدحمة (..) حامل اللوحة يجرى .. حامل الغدارة يركض فى أعقابة (ص٢٣٥الأعمال) وفى أثناء ذلك يتم استعراض مشاهد تشبه مشاهد يوم القيامة فالنجوم تسقط ميتة والناس تتراكض لاهثة والخرس والرعب فى الخطوات والطاعون المنتشر الخ والصاعقة والطوفان والموتى الذين ينشرون من مقابرهم ، كل هؤلاء ضحايا هيروشيما وكربلاء وديرياسين ، وهنا يأتى الحديث عن الحسن والمسيح ، ثم يتسلم حامل الخريطة الطفل ليواصل الركض وصولا إلى آخر الزمان ، إلى ما بعد الوجود إلى الساعة الخامسة والعشرين وهنا تظهر من جديد جثة المرأة القتيلة التى نعرف ان اسمها (صابرة) وقد جاءت مرفرفة بجناحين تحف بها هالة من الضياء، فلقد أصبحت رمزا وقيمة ومعنى لتقول :« ياحامل الغدارة .. لقد انتهت المسيرة هاهو زمنك يموت .. عالمك بأسره يواجه الاحتضار .. نحاطفلنا .. وكذلك الوثيقة وجاء يوم الانسان » ل(ص ٢٤٣ وهنا تظهر السفينة التى تحمل حامل الخريطة والطفل وتنتهى القصة لتلقى ببشارتها على أذهاننا ومشاعرنا فى ذات الوقت ، فها هو الخلاص تمكن رؤيته رأى العين ولكن بعد أن كابدويكا بد الانسان على طول تاريخه .

إن القصة لاتورد أسماء لأى من شخوصها ، اللهم إلا اسم صابرة الذى نعرفه قبل النهاية بقليل ..كاسم لصاحبه الجثة التى قابلناها فى بداية القصة ، بما يوحى بأن هذه المرأة الرمز إنما هى الحقيقة الانسانية التى عليها أن تصبر على المكاره على مدى الدهور ، ولكنها لاتفنى ولاتموت ويصبح الطفل هو تجسدها الذى يجد من بنى البشر من يحمله ويحميه ويحافظ على عهده ووثيقة - خريطته ليصل به إلى سفينة الأمان. إنها إذن بانوراما الوجود الانسانى المقاوم ، وتلك بشارته فى أن زمنه قادم ولكن بعد انتهاء هذا الزمان القاتم المظلم ، انه قادم فى الساعة الخامسة والعشرون . فهل هى النبوءة والبشارة أم مجرد الأمل والأمنية ؟ ذلك ما لاتفصح عن القصة ، ولكنها تطرح فى داخلنا يقين الخلاص ، طالما وجد فينا نوح والمسيح والحسين وحامل الخريطة فلابد لهذا الظلام من فجر إنها إذن دعوة المقاومة والصمود التى وصلت اى مشاعرنا وعقولنا فى ذات الوقت.

***

هكذا تتواصل رحلة عبد العال الحمامصى الابداعية فى تنويعاتها المتعددة وفى آفاقها الرحية التى لم تترك منحى بنائيا إلا واستخدمته. ولكن على طول هذه الرحلة كان الصراع بين الوداعة والعنف هو هاجسة الأول ومحركه الأثير وهنا يمكن أن نكتشف الدور بالغ الخصوصية الذى يلعبه الرمز ووصف الطبيعة والأماكن وتحولات الأزمنة . الخ لنكتشف الروح الوهاجة المفعمة بمحبة الانسان والتواقة للعدل والحرية .

للكتاكيت أجنحه

دخلت غرفة النوم .. وخلعت ملابس البيت .. ثم ارتدت فستان المناسبات الوحيد لديها .. وقفت أمام المرآة تمشط شعرها استعدادا لاستقبال خطيب أختها وأسرته .. والضجة فى الصلة تنفذ اليها صاخبه .. تموج بالفرحة .. نساء وعذارى وأطفال .. وزغاريد تزعق بين كل لحظة والأخرى . كلما قدمت من تموة جديدة . والفتاة النحيفة زالت ترقص ويتلوى جسدها كالثعبان على نقرات الطبلة فى يد الجارة العجوز .. وهى تغنى بصوت مشروخ النبرات .. لأختها فى الصالة .

تمنت سعاد لو أن تظهر بفستان جديد . القديم لم يفقد زهوته .. ولكنه ضاق عند خصرها .. والجنيهات التى وفرتها لشراءفستان جديد .. أعطتها لرشاد ليبتاع بها مراجع جديدة.. ظهرت فى الهندسة الكيمائية .

ومن خلال الدوامة فى الصالة تناهت اليها زغرودة صاخبة .. اهتزت لها جدران البيت .. ثم جاوبتها زغاريد المدعوات..هادرة.

عرفت سعاد صاحبة الزغرودة .. وابتسمت .. خالتها حميدة ..

دائما تدخل بعاصفتها فى الأحزان .. وفى الأفراح .

وتأكد اعتقادها عندما هدأت زوبعة الزغاريد التى أثارتها .. وتدافعت عبارات التهنئة من فمها لنهاد منفعلة باهتياج الفرحة.

* « مبروك يا نهاد » ألف بركة يا حبيبة الكل .. ربنا يتمم بخير يا حلوة .. وعقبال كل البكارى».

واندفعت تسحب الخطيبة من بين صويحباتها .. وتحتويها الى صدرها وهى تغمرها بقبلات منهمرة .. ثم تطلق من جديد زغرودتها الصاخبة .. فترد عليها أفواه الجارات بالزغاريد متجاوبة.

وقبل أن تجلس بجوار جارة نحت طفلها لتفسح لها مكانا بجانبها ، انطلقت نظراتها تتجول فى أرجاء الشقة باحثة عن سعاد.

* سعاد .. أين هى يا بنات .. أين رجل البيت ؟ ..

وابتسمت سعاد داخل غرفتها .. ساخرة .. وقد شعرت بالكلمة تخدش قلبها .. وتتلاقى مع أحاسيس غريبة ظلت منذ الصباح تقاومها .. ربما للمرة الأولى فى حياتها تشعر بالمرارة لوقع الكلمة .. رجل البيت .. وأنسابت الكآبة فى روحها .. انسابت تيارا هادئا من الأسى جرف كيانها.

رجل البيت .. عادت تردد الكلمة .. وهى تجفف قطرات من الدموع طفرت برغمها .. ثم انبثقت من أعماقها خواطر تلومها ..

وتستنكر هذا الاحساس منها بالأسى والاكتئاب فى ليلة خطوبة أختها .

وعاد نداء خالتها حميدة من الصالة يستعجلها .. وهى مازالت أمام المرآة تعيد تصفيف شعرها .. لم ترق لها التسريحة الأولى .. تبدو فيها كفيتات الملاهى .

وضعت المشط وخرجت الى الصالة وفوق ثغرها ابتسامة عريضة .. وانفجرت الزغاريد فى وجهها . وهى ترحب بالمدعوات .. وتقبل مجموعة من زميلات نهاد فى معهد المعلمات جئن أثناء وجودها فى الغرفة .. وتتمنى لهن العاقبة .. فتشرق الأحلام فى عيونهن والجارات من حولها يتبادلن التمنيات لبناتهن والشبان .

كل واحدة تتمنى العاقبة للأخرى .. هى الوحيدة التى لم يقل لها أحد العاقبة لك .. ولا واحدة قالت لها الكلمة المعتادة .. ولا واحدة .

وعادت الكآبة توخز قلبها . هى .. شئ فرغ من أمره عرف مصيره .. لامستقبل له . لاعاقبة عنده .. والتقت بخالتها حميدة وهى خارجة من المطبخ وفتحت ذراعيها تحتضن المرأة البدنية الطيبة .. بقبلاتها . وتمنياتها .

* « مبروك لنهاد .. وعقبالك يا بنتى . ربنا يعوض صبرك .. ويرزقك ابن الحلال .. ابن الحلال ؟ .. خالتها حميدة . هى الوحيدة

التى تذكرت أنها أنثى .. من حقها أن تقال لها الكلمة ابن الحلال.

شعرت بالكلمة توجع قلبها .. نفذت داخل أغواره .. تثير لواعجه الكامنة.

وتخلصت من أحضان خالتها ترد لها التمنيات.

* « عقبال الشهادة الكبيرة لمحروس يا خالة .. وحجتك أنت وعمى رضوان ونادت لأختها الوسطى فى المطبخ تستعجل الشربات.

* نفسى يا سعاد يا بنتى .. أعيش لغاية ما أشوفه جنبك فى «الكوشة» وابتسمت سعاد.

لم تستطع هذه المرة أن تمنع المرارة من أن تشوب ابتسامتها وتطل من عينيها.

* بعد ما شاب .. يا خالتى .. أنا قلت لك من زمان .. خلاص يا خالة .. أصبحت رجل البيت ولم يعد هناك ما يشغلنى غير هذا.

رجل العائلة.

خالتها حميدة .. هى التى أطلقت عليها تلك التسمية .. ليلة زفاف وداد هنأتها بزواج أختها .. وتمنت لها ابن الحلال .. وأجابتها سعاد بأنها تزوجت خلاص .. تزوجت وأصبحت رجل العائلة .. ومن وقتها وخالتها حميدة لاتناديها الا وهى تداعبها بتلك العبارة .. رجل

العائلة .. بدون أن تعرف أنها تدمى بها الجرح الكامن فى أعماق أنوثتها .. الجرح المتقيح فى الداخل لايريد أن يلتئم أبداً .. وتحرص على أن تدارى عن العيون نزيفه..

تركت خالتها عندما جاءت واد بالشربات .. وأخذت تساعد أختها فى توزيع الأكواب على المدعوات .. والأطفال .. ونظرت إلى ساعة يدها .. الثامنة والنصف .. الخطيب موعده التاسعة.

وحانت منها التفاتة للعروس فى ثوبها الأنيق .. فاتنة .. وحلوة .. والسعادة تزغرد فى عينيها .. ومن حولها البنات زهرات شذية . يحطن بها ويداعبنها ، واحدة تقرص خدها وأخرى تهمس فى أذنيها. وأحلام فى كل عين .. والابتسامة فوق كل ثغر .. كل واحدة فى قلبها الاحساس بأنها على موعد مع الغد.

كانت خواطرها تتابع « زيطة» الفتيات .. عندما اصطدمت بها احدى المدعوات عفوا .. وامتدت يد الرضيع فوق صدر السيدة « ينكش » شعرها . واقتربت من المرآة المقابلة لتعيد توضيبه .. والتفت نظراتها بالشعيرات الفضية بين خصلاته.. وغامت أساريرها .

لم تكن تلك الشعيرات مفاجأة لها .. رأتهن من قبل وأحصتهن بالواحدة فما الذى جعلها ترتجف هكذا . فى ليلة أختها .. ماذا جرى لك يا سعاد .. أية أحاسيس غريبة ومجنونة تراودك اليوم يا فتاة .. أفيقى لنفسك .. لم تعودى مراهقة . نظمت شعرها واستدارت

ترحب بجارة وافدة مع بناتها .. والتقت عينها بعين أختها .. كانت العروس تتابعها .. وفطنت هي للاكتئاب الذى يشوب نظرة نهاد .. في ليلة خطوبتها.

وابتسمت لها .. « معذرة يا صغيرتي .. لاشئ .. لاتكتئبي هكذا يا عصفورة في ليلة أحلامك .. كوني سعيدة يا حلوة .. في منتهى السعادة أنا .. سيكون لك بيت يحتويك .. ورجل يحميك .. والحياة أمامك .. في منتهى السعادة أنا .. فلهذا اليوم كنت أعيش .. سعيدة .. لأنني أدخرت عمري حتى لاتدوس أقدام الزمن حيوانكم .. ونجحت ».

وأنا .. أنا سعيدة . وكادت الدموع تنبثق من عينها . ولكنها قاومتها.

وأفاقت من خواطرها .. ومناجاة أختها على الزغاريد تنطلق عاصفة .. واستدارت فوجدت الخطيب خلفها وأسرته .. الأم .. وبنتها الطالبة .. وماجد الصغير .. آخر العنقود .. ونهضت صاحبة صديقة نهاد المخلصة لتعطى مكانها للعريس بجوار عروسه .. وانطلقت الزغاريد من جديد .. ثم اشتد حماسها ودويها عندما دخل رشاد .. « الباشمهندس » .. رددتها أفواه الأمهات .. ثم انهالت عليه التمنيات بالشهادة .. والعروس .. وترقرقت الأحلام نشوانة في

عيون البنات .. وهن يخالسنه نظرات معجبة بوسامته .. فظنت اليها سعاد.

« كل واحدة لها أحلامها الا أنت يا سعاد .. « الباشمهندس» .. كل عذراء هنا تتمناه .. أعطيته دم قلبك لتقدميه فى النهاية لواحدة أخرى .. تأخذه منك.. أنها تعرف ذلك مقدما .. تعرف أنها مجرد صانعة أفراح .. وليست لها أفراح تخصها.

وقدم العريس « الشبكة» وألبس الخطيبة « دبلتها» ..وانطلقت الزغاريد.

ونظرت إلى الدبلة فى أصبع أختها .. ذات يوم .. كانت فى أصبعها هى الأخرى دبلة .. كان لها خطيب .. وارتفعت نظرتها الى عين نهاد .. أختها سعيدة بدبلتها . فى أفراح عينيها الاحساس بأنها دخلت الدنيا .. « كونى سعيدة يا عصفورة .. دبلتك كأنما فى أصبعى أنا».

ومن خلال الضجة والزحام والزغاريد ، تدافعت الذكريات الى مخيلتها.

كانت صغيرة .. لها أحلام مراهقة تحلق فى أجواء فسيحة .. طالبة فى « مدرسة السنية» .. فى كل مكان تحاصرها نظرات الاعجاب .. وتنهدات الشبان .. فى الأتوبيس .. فى الشوارع .. فى الحارة .. فى

كل مكان تلاحقها النظرات المفتونة بجمالها ورشاقتها .. ورغم أن عبارات الغزل كانت تدغدغ بالفرحة روحها .. ظلت تدخر عواطفها .. وتغرقها فى المذاكرة .. حتى تتخرج من الجامعة وتلتقى برجل أحلامها .. وفى يدها شهادة تحفظ عليها كرامتها .. وتساعد بها زوجها فى معركة الحياة .. ليكون بيتهما سعيدا .. وتجنبه الحياة المكدورة التى يعيشها والدها فى كفاحه المرير من أجل أن يقيم أود عائلته .. ويدفع لها مصاريف المدرسة . أغلقت قلبها دون أى نداء .. ولم تعط شابا حتى ابتسامة ارتياح لعباراته ..

وفى شارعها كان طلبة الثانوى يدعونها بالمتكبرة . المغرورة .. والذين يطالعون الروايات منهم .. اسموها « المعقدة » وكانت تبتسم ساخرة فى سرها .

وابتسمت الدنيا فى وجهها .. عندما نالت شهادة التوجيهى بمجموع سيتيح لها المجانية فى الجامعة .. ولكنها كانت قد اتخذت قرارها .. سوف تشتغل بشهادتها وتنتسب لكلية الآداب فى نفس الوقت .. لتوفر على والدها الطيب نفقاتها الخاصة .. ومن جهة أخرى لترد له بعض الدين .

وحاول الرجل الطيب أن يقف فى وجه قرارها ... وعدها بأن يحول قطرات دمه إلي نقود تفى باحتياجاتها .. ولكنها كانت ق

ركبت رأسها .. فرضخ الرجل مرغما لعنادها .. وتوظفت بقسم الخامات فى « شركة البلاستيك الأهلية » .. وخطبها أحد المهندسين الجدد .. اجتذبته أخلاقها واستقامتها كما قال لها .. وما نعت فى البداية .. ثم قبلت عندما وعد بأن ينتظرها إلى أن تستكمل تعليمها العالى .. ووضع الدبلة فى أصبعها .

وافاقت من خواطرها على صوت أم الخطيب .. تسحبها من يدها .. ثم تطوف معها بالمدعوين تستعرض « الشبكة » التى انتقاها ذوق العريس .

كانت لها أيضا هى « شبكة » .. أعادتها لصاحبها .. مات والدها بالذبحة الصدرية .. مات الرجل الطيب المريض .. الذى ينوء كاهله بمطالب أسرته .. ورغم مرضه وشيخوخته .. كان يعود من عمله النهارى فى مصلحة المساحة ليشتغل قاطع تذاكر فى فترة المساء «بسينما الشرابية» ليجلب أجرا اضافيا يغطى به نفقات البيت ..لم تره يشكو أبدا .. كان يحتمل تعاسة واقعه بلا مرارة .. وخرج الرجل الطيب من الدنيا بدون مسرات لها فيها .. ثم لحقت به زوجته بعد ذلك بشهور .. وجدت سعاد نفسها رجل العائلة .. كان هذا نصيبها .. وسارت بالسفينة بين الأعاصير وحدها .

وأعادت الشبكة لصاحبها .. مع الدبلة .

تمنت وقتها بلهفة جائعة .. أن يكون الرجل شهما .. فيقول لها «

كونى لى ولاخوتك فى نفس الوقت وليكن مرتبك من أجلهما ..لم تكن ستقبل تضحيته مهم حاول .. ولكنها تمنت فى أن يقول لها ذلك فحسب .. لتشعر أنا الدنيا بخير .. وأن فيها من يبدى استعداده للتضحية ..،كانت سترفض قطعا فقط تمنت الكلمات .. لتعيش عليها .. لتواجه المصير بها . ولكنه لم يقلها . أبدى أسفه .. قال أنه كان يتمناها زوجة . ولكنه يريد سيدة بيت تتفرغ له ولأولادها .. وظروفها هى ترغمها على العمل من أجل أخوتها.

نسى الرجل أنه اتفق معها من قبل على أن تظل فى العمل بعد الزواج لتضيف مرتبها الى مرتبه ليمكنهما توفير حياة طيبة لأولادهما .. نسى ذلك .. أنها لاتحقد عليه .. لاتلومه .. ولكنها كانت تتمنى الكلمات.

وماتت أحلامها فى الجامعة .. انقطعت عن مواصلة الانتساب .. لم يعد لديها وقت للمذاكرة .. ونسخ المحاضرات .. كانت تعود من الشغل لتنكب على احتياجات اخوتها . المطبخ . والغسيل . والمشاجرات . ومشاكل الطفولة .. أصبحت الأب .. والأم .. والمربية وأخيرا .. ها هى الآن عانس فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة .. بلا أفراح تخصها.

انفض حفل الخطوبة .. استأذن العريس وعائلته وانصرف بعده

بقية المدعوين .. ثم خالتها حميدة .. ووداد مع زوجها .. وارتدى رشاد منامته وذهب الى فراشة .. ونضت سعاد ثوبها وساعدت نهاد فى خلع فستان الخطوبة .. وقبلتها ثم أطفأت النور .. وتمددت على السرير بجوارها .. وعادت الخواطر تجرف كيانها .. وسرعان ما وجدت نهاد بجوارها قد غرقت تماما فى نومها .. وامتدت يدها ثم أمسكت يدها تتحسس الدبلة فى أصبعها .. ولثمتها .. ثم أسدلت «اللحاف» على وجه الصغيرة وانسابت مع ذكرياتها.

والدها العجوز .. المشروخ الصدر.. كم كان يعبدها .. ونزهاتها معه وهى طفلة على شاطئ النيل .. وفى حديقة الحيوان « وحواديته» لها عند سفح الهرم .. وشقاوتها وهى تجرى هناك .. وتقذف أنف أبى الهول بالحصى والرمال .. أطبق على قلبها الانقباض .. مات الرجل الحنون الطيب والآسى يترع قلبه .. مات ونظرة الأسى فى عينيه .. لأنه ترك للدنيا « كتاكيت بلا أجنحه » .. وانبرت لها من بين الذكريات المتداعية صورة أمها . بوجهها الباش وطرحتها البيضاء .. وتوهمتها تدنو من فراشها فى الظلام .. ومدت يدها بحركة تلقائية . ولكنها قبضت على الفراغ .. ووجدت نفسها تهمس لها .. « قولى لأبى يا ماما ساد قامت بالمهمة .. لكتاكيته الآن أجنحة .. عام واحد يا أمى ويغدو رشاد مهندسا .. ووداد يا أمى زوجة هانئة .. أم ثلاثة أطفال كالملائكة .. ونهاد فى أصبعها دبلة .. وشهادة من معهد المعلمات ..

وانخرطت تبكى .. كل هذا صنعته هى .. على حساب شبابها .. قاومت أنوثتها .. واختلاجات الربيع فى قلبها .. كل فتاة مثلها .. كانت تحلم بقبلات حبيب .. بأحضان رجل .. بمناغاة طفل تنسجه من أحشائها .. الا هى مضت وعلى كاهلها التبعة .. وهى تحاول أن تبدو جامدة كالصخر .. متجهمة دائما كالراهبات .. حتى لاتعطى الفرصة لانسان كى يتمناها.

منذ عشر سنوات تماما .. كان أحد طلبة الجامعة يقطن فى مواجهة نافذتها .. دائما كان يعاكسها .. ينتظرها عند محطة « الأتوبيس » فى الصباح وهى ذاهبة الى عملها .. ويترقبها وهى عائدة .. ليبثها عبارات الوله .. والغرام .. ويناشدها أن تستجيب لعاطفته .. وترحم سهاده .. كان يقول لها هما بأنه لايستطيع الحياة بدونها .. وأنه على استعداد لأن يقدم لها أى تضحية تطلبها تأكيدا لحبه .. ولكنها دائما تمضى بدون أن تلتفت اليه .. كأنما كلماته لانسانه غير موجودة.

وكانت تتعذب .. كلماته المترعة عذوبة وحنانا .. وشعرا .. كم أذابت قلبها .. بدون أن تعطى قسمات وجهها أي تغيير يشى بنشوة روحها لكلماته .. وفرحة قلبها برؤياه.

وذات صباح اقترب منها .. ثم اندفعت كلماته .. حانقة .. ثائرة .. يائسة.

« أنت .. انسانة بلا قلب .. بلا عاطفة .. أنا حزين لأننى أحببتك.. لم أكن أعتقد أن توجد فتاة متعجرفة .. ومتكبرة ومعقدة إلى هذا المدى .. حزين .. أنا . من أجلك أيضا » قال كلماته بسرعة لاهثة .. ومضى .

متكبرة هى .. ومعقدة.

تمنت لحظتها لو كانت تستطيع أن تجرى خلفه .. لتقول له أن كلماته أجمل شئ فى حياتها .. وأنها الشعاع الوحيد الذى يضئ بين ظلمات واقعها . ولكنها لاتستطيع .. لاتستطيع لا لأنها متكبرة ومعقدة .. بل لأنها غير البنات .. لأنها رجل عائلة .. وأنه غريب فى الحارة ولايعرف ظروفها.

وكف بعد ذلك عن التصدى لها .. ثم عاد إلى بلدته فى الأجازة الصيفية .. ولم تعد تراه بعد ذلك فى الحارة .. اختفى من حياتها .. أنها الآن مستعدة أن تدفع بقية عمرها فى سبيل أن تراه مرة واحدة .. أن تراه من بعيد .. ربما يكون الآن فى مكان ما من هذا العالم فى أحضان زوجة طيبة .. تسكب أنوثتها وحنانها دفئا لشبابه .. أما هى فعانس فى الخامسة والثلاثين..

وحيدة مع وسادتها .. وحيدة .. والشعر الأبيض يقتحم رأسها .. وحيدة فى النهاية .. وربما ينسون تضحية العانس العجوز وازدادت دموعها انهمارا وهى تتخيل شيخوختها .. وحيدة .. بلاشئ يدفئ

حياتها ويعطى الطعم لأيامها .. بدون كتاكيت تصنع لها أجنحة.

اعتدلت نهاد وهى نائمة على جنبها الأيسر وأعطتها ظهرها .. لأول مرة تنام الصغيرة وصدرها ليس فى أحضان أختها .. اكتفت الليلة بأحضان عريسها .. فى الأحلام..

« نامى يا حلوة .. هانئة» ووجدت نفسها تبحث عن يد زختها .. ثم تتحسس الدبلة فى أصبعها . وقد أشرقت من ظلام خواطرها رؤيا أشعت تثلج قلبها .. ثم انسابت وانتشرت تضئ كل أحاسيسها .. فتركت يد أختها وأسدلت الغطاء على وجهها وأغمضت عينيها على منظر خالتها حميدة .. تندفع إلى الصالة بعاصفتها .. ثم تنطلق فى أرجاء البيت زغاريدها .

قابيل يخنق القمر

بالأمس كان القمر مختنقا في سماء مدينتنا . من فوق أسطح البيوت . في الدروب الضيقة والأزقة المعتمة ، انطلقت مواكب الأطفال تقرع فوق الصفائح القديمة وآنية النحاس تناشد « بنات الحور» أن يطلقن سراح القمر . وظل القمر مخنوقاً برغم ضراعة الصغار . ونواح الصفائح كصلوات بدائية لاله مات قلبه !!

وتذكرتك أنت . تذكرت سخريتك من جدتي . ومن المقدس دانيال « شماس كنيسة » « السيدة دميانة» المجاورة لبيتنا . تذكرتك وكتاب الجغرافيا بيدك .. تفسر لنا ظاهرة خسوف القمر .. والجدة تشتمك في حب وتلعن المدارس التي تلقنك هذا الكفر .. وتعلمك الكتابة من الشمال لليمين في آخر الزمن !! كان رأيها أن « بنات الحور » هن اللواتي يخنقن القمر لأنهن عاشقات له وهو يتأبى عليهن .. أما المقدس دانيال فقد كان يؤكد لنا بأن « قابيل » هو الذي يخنق القمر انتقاما منه لأنه أضاء الصحراء ذات ليلة وكشف جثّة « هابيل» لعيون الغربان التي نعقت وانقضت تنهش فيها أيقظت الملائكة فوشت به لآدم .

تذكـرتك ونمت .. فى نومى رأيت حلمـا .. رأيت يدك تطبق على عنق القمر ! لم أر وجهك .. كان مختفيا وراء سحب داكنة . ولكنى أعرف يدك . أصابعها . عروقها . والوشم فوق الكف أعرفها .. يدك .

مـاتت جدتك منذ أيام . قال الناس بأن جثتـها طارت بالنعش من فوق أكتاف المشيعين . لم أستطع تكذيب الخبر . لأنى لم أسر خلف جنازتها . تخلفت أفتش فى حاجياتها . واستبحت لنفسى مسبحتها اليسر ذات الرائحة العبقة بما يشبه رائحة الكافور . وتراب المقابر والأضرحة .. وخرجت والمسبحة فى يدى أطرق باب بيت المقدس دانيال أعب مجانا من خمره المعتقة التى يجلبها له صديقه المبشر الأمريكى من كروم يافا والجليل .

منذ ساعة عدت من بيت دانيال ومازالت أبخرة العرقى فى دماغى . ووهجه فى عروقى . بينما تجرفنى مشاعر تواقة بشبق لأفرغ لك كل الأشياء التى تلهث داخلى . كما كنت أفعل أيام كنت تسكن نخاع عظامى . عندما كنا نعيش فى كنف أسرة متماسكة نغنى فى مواسم الحصاد .. أبى .. وأمى . والجدة . « وسارة» والضيوف الذين كان يصطخب دائما بهم بيتنا الكبيرة العتيق . بطوابقه . ودهاليزه . لم يعد الآن يطرق بابنا أحد .

فـمنذ سنوات والمرحوم والدك لم يعد هو العمدة .. بعد أفلاسه

مباشرة . جاء المأمور ومعاون البوليس والمشايخ . ونقلوا التليفون إلى بيت العمدة الجديد فى مشهد أشبه بالفضيحة . . !

زمان كانت مواكب الحكام ورجال الدين تتجه الى بيتنا وتقتعد الساحة تحت شجرة التوت . . شجرة التوت ما زالت راسخة . . تسخر من مياه الفيضان التى تلطم ساقها فى عناد . . كنت أعشق النهر حيث كنت تجدبنى عاريا لتعلمنى السباحة داخله . . وغرقت منك ذات صيف . وعندما انتشلنى الصائد العجوز . قلت لى بعد أن أفرغ المياه من جوفى . بأننى لو كنت شعت منك فى جوف النهر ، لأشاع الناس الأقاويل وتكرر اللغو حول قابيل وهابيل . ولم أفهم ما تعنيه . . كنت أعرف الحكاية بالطبع . قرأتها فى كتاب المطالعة . ولكنى لم أفهم صلتها بحادث غرقى ! !

نسيت أنا هذا الحادث تماما . . لولا أن ذكرنى به الصائد العجوز . . رأيته منذ عام يتسول على قارعة الطريق . وقد فقد بصره الرؤية . وعرفنى عندما تحسس يدى . ثم قال لى بأنك كنت تستطيع أن تنقذنى قبل أن تبتلعنى المياه . ولكنك تركتنى أغوص بدون أن تفعل شيئا . لولا أن جاء هو بقاربه فى اللحظة المناسبة . . وعدت يومها إلى البيت أستعيد ملابسات الحادث .

وفى الليل رأيت حلما . . رأيتك بجوارى تقرأ لى قصة هابيل وقابيل فى نسخة مذهبة من توراة قديمة وقد نمت لك لحية كثة . وتلبس قفطانا

فوق البنطلون . وطلبت منى بعد أن فرغت من القراءة بأن لا أصدق الحكاية . . المسألة بحذافيرها مجرد خرافة . . ليس هناك قابيل وهابيل . . لأن آدم لم ينجب اطلاقا . كان عقيما وأن «هيرودیت» اليونانى قد اخترع الحكاية من خيالة !!

وصحوت بعد كلماتك مباشرة . . كان حلما . . أنت فى القاهرة . وأنا فى الصعيد . . أتذكر يوم أن جئتك فى القاهرة . .

لم أستطع أن أغلق قلبى دون توسلات « سارة» من المستحيل أن تقتلع رياح الزمن ذكرى هذا اليوم من نفسى . . استقبلتنى بفتور . تجاهلت ذراعى الممتدين لاحتضانك . . سألتنى زوجتك قبل أن يقدم لى الخادم كوب الشاى عن الفندق الذى نزلت فيه . . غامت الدنيا أمامى . وابتلعت ريقى أجيبها بأنى سأنام فى رحاب « الحسين » فعجائز بلدتى حملونى قراءة الفاتحة فى مغامه !

ونظرت اليك لأرى وقع سؤالها . لم ألمح أى تعبير يشى بالدهشة . . فنهضت بدون أن أتحدث اليك فى مسألة « سارة» ولبثت أسير فى شوارع المدينة مذهولا ينتهبنى الضياع . . سألت رجلا عن الطريق الى المحطة فقد فقدت قدماى الطريق . . تفرسنى الرجل طويلا . . كانت ترافقة فتاة بيضاء مذبوح قلبها فى عينيها . ثم أمسك بيدى وقبضته الأخرى على رسغ الفتاة وسار بى داخل دروب متعرجة . وفى زقاق

دامس الظلام شهر سكينا فى وجهى واغتصب كل ما فى جيبى .. ناشدته الفتاة أن يدع لى ثمن التذكرة فلطمها على وجهها .. فركعت تحت قدميه تضرع اليه أن يبقى لى أجر العودة .. وفى مقابل ذلك تنازل عن حصتها من عملية الليلة .. وأعطانى ثمن التذكرة وانطلق بالفتاة وتركنى.

اجتاحنى الخوف فاندفعت أجرى ملتاثا . مهبولا . وعندما قابلت رجل الشرطة ارتميت فوقه أخبره بحكايتى .. فانطلق يقهقه فى جنون .. سألنى إن كنت من الصعيد . وعندما أجبته زادت عربدة ضحكاته «قريب لك اشترى الترام من قبل» ثم أبتعد عنى وغاب فى زحام الميدان ! !

تساءلت يومها وأنا أتجه الى المحطة بارشاد بائعة الخبز الصغيرة ما الذى جعل « إبراهيم» هكذا .. فرغم أننى كرهتك بضراوة .. لم أكن مستريحا لقرار ضميرى بادانتك .. كثيراً ما فكرت بأن كل مخلوق له الحق فى أن يتصرف بما يروقه .. وأن أى انسان ليس ملتزما قبل الآخرين بشئ . ومن الحمق أن ندين أحدا بشئ خارج ذاته . لكل انسان حياته وله مطلق الحرية فى أن يجدف لسفينتها فى الاتجاه الذى يعتقد أنه الصحيح . وأن الآخرين لذين يحملون تعاسة الانسانية فوق كواهلهم نماذج شاذة .. مازالت تحمل رواسب أعوجاج ما فى تركيب التاريخ ! !

وعدت أنا لأتزوج سارة .. فقدت الأمل في عودتك .. أجهضت لها القابلة الجنين برغمها كانت تتمنى أن يبقى لها فقد نسجته من صلبك. حاولت أن أبث في قلبها الكراهية لك وفشلت . ما أستطع أنا أن أقسر نفسى على كراهيتها .. دائما دافئة . وحلوة .. في قلبها نبع من الحنان لايغيض إبدا .. يلوح لى أن هذا النبع وجد ليروى آلاف الرجال بل آلاف الأجيال الى أن تنتهي الدنيا ومن عليها .. أنها تعطى دائما بقابلية غريبة . ولكنك مازلت تفصلنى عنها . عن النفاذ لروحها .. أنها تدخلنى أغوار أنوثتها ولكنها تلفظنى إلى السطح كلما حاولت الاستيلاء على روحها!!

قالت لى منذ أيام أنها لاتصدق أنك شرير الى هذا المدى . كنت ساعتها أحدثها عنك . وأتساءل عن السبب الذى جعلك شريرا برغم أنك لم تهزم من أحد ..وليس العالم مدين لك بأى صفعة .. قالت لى بأن الغائب حجته معه .. وأعطتنى ظهرها ونامت!!

في الصباح سألتني .. لماذا أبيت أن أفضحك ما دمت أكرهك إلى هذا الحد . ولم أستطع الاجابة حتى بينى وبين نفسى ..أنا انسان يفتقد القدرة على فهم نفسه . مرات كثيرة أبكى عذاب العالم . واجدنى مستعدا الأن أن أحتضن الموت في بيل أن لاتذرف عين انسان معة .. عندما كنت صغيرا :. تقرأ لى أنت قصصا بتعذب أبطالها .. كنت أتمزق حزنا .. وأنا أعدهم في سريرتى بأن أكون مسيحا من طراز

جـديد ينتـقم لكل تعـاسـات الأزمنـة .. الان مـازالت أعـانى من هذه الأحـاسيـس ولكن فى نفس الوقت تخطر لى أفكاره مغـايرة .. مـرات كثيـرة عندما أواجـه ضـراوة الناس أجد نفسى مـستعدا لكراهيـة كل شئ. وأتمنى لو أن تتاح لى الرصـة لأنسف العالم كله وأذروه هشيـما .. قلت هذا لسـارة فى المسـاء عندمـا عـاودت سـؤالهـا .. فـجـاوبتنى بالصمت!!

منذ شهور مات والدك منتحرا .. خسر كل ثروته ..وعرفنا عذاب الاحسـاس بأننا أصـحـاب نعـمـة زائلة .. وأنفض لناس عنا . ولم تعـد «مندرتنا» مليئـة بالضيـوف من كل فج عـميق لـم يعد يطرق بـابنا من الغرباء غير المحضرين!!

مـات تاجـر القطن المفلس بـدون أن يعـرف سـر خـرابـه . أنا أعـرف . وأنت . أعرف سر تآمرك مع السماسرة نـظير عمولة ضخمة .. فكرت يومها أمام رهبـة الحادث ومضاعفاته .. أن أفضحك ، أن أوقفك عاريا وأرجمك .. لم أستطع .. رفضت الفكرة باحسـاس سـجين يعـرف أن القضية التى يتعذب من أجلها زائفة !!

كان الصـمت يمزقنى من الداخل فلا أجد خلاصا غيـر أن أطرق بـاب دانيـال ليفـرغ فى جـوفى كؤوس العرقى .. وعندما تنفد الخمـر داخل دماغة ينطلق يتحدث عن المسيح ويهوذا ويترنم بمقاطع من « المزاميـر» ويهـذى بكلام غريب عن شجرة التين التى أورقت وعن قـارورة العطر

الى دهنت بها الخاطئة قدم الانسان الذى طوب المساكين بالروح فساقه التجار فى موكب الحقد نحو الصليب . عن المطران الذى رسم سمعان النجار قسيسا لكنيسة العذراء نظير ثلاثة خرقان وعشرة ديوك . وتجاهله هو الأثوذكسى خادم الكنيسة القديم .. ثم تجرفه نوبة البكاء وتتشنج أعصابه ويقذف بى خارج بيته .. لأجد سارة فى انتظارى .. سارة أنها عذابى .. هى الأخرى معذبة بشئ ما فى تكوينها .. انها تعطى نفسها بحنان أنثى تذوب فى جسدى . ربما فى جسد الانسانية كلها . كما يلوح لى .. ولكنها غريبة عنى . روحها تحلق بعيدا .. دائما أشعر بها هاربة منى .. روح سارة !

أحيانا تقول لى بأنها تكرهك الى حد الموت .. وأعرف أنها كاذبة . أنها مستعدة أن يقطع جسدها أربا فى سبيل أن تراك لحظة . أن يهصرها ذراعك .. أن يمتصها فمك .أن تشربها مسامك . عذاباتها أيضا تمزقنى !

عندما مات والدك قالت لى أمك .. أن كل شئ يموت لكن الحياة تتولد من جثة الموت . فلا شئ يموت أبدا .. فهمت أنها تحرضنى لأنجب من سارة .. قلت لها أن قابيل لم يقتل هابيل فحسب قتل العائلة كلها . قتل حتى نسلها فى الغيب . كان فى خاطرى أن سارة لم تتقبل أحشاؤها بذورى . نبات الأرز لاينمو فى خط الاستواء . وفهمت أمك .. ولم تقل شيئا !!

ليست خمر دانيال هى التى تدفعنى لهذه الثرثرة . زمان عندما كنت أسمع الحواديت الخرافية من المقدس دانيال وجدتك . عندما كنت تصطحبنى الى سينما البلدية فى المدينة المجاورة لأشاهد معك «أفلام طرزان» كانت تنمو فى داخلى أشياء غريبة . .

كنت أحلم بعالم لاناس فيه . . أنا وحدى . . وحدى لاغير فيه . كنت أخرج من حصص الدين فى المدرسة لأهرع الى المقابر شرقى المدينة . . وأطلق العنان لأفكارى . أتامل الخليقة . والعالم وقصة وجودنا على الأرض . . كنت ارتبك أحيانا وأتوه وأنا أدخل فى حوار ساذج مع أشباح غير منظورة . وبعدها أحاول أن أقنع نفسى وجماجم الموتى تحدجنى من المقابر الخربة . بأن الوجود . والمدرسة . وبيتنا ومحالج القطن . ومآذن المساجد وقباب الكنائس . والمقابر . . كل هذه أشياء لاوجود لها فى الحقيقة . . انها توجد فى داخلى فحسب . لا وجود لغيرى أنا .

وعندما أموت تموت كل الأشياء معى . وربما لا أموت . ربما أكون أنا العالم . من أدرانى ربما أكون الاله ذاته !!

قلت هذا لسارة بالأمس . لم تقل شيئا فى البداية . وعندما أعدت الكلمات امتدت يدها تجس جبهتى . . ثم قالت لى أنت مريض . قلبك يختنق . قم معى إلى السطح لتشم الهواء .

وجدنا الظلام دامسا فوق سطح بيتنا . لم نجد القمر فى السماء .

وانطلقت نظرات سارة تبحث عنه خلف السحب . وهى تقول لى ..
مضى يوم بدون أن يظهر القمر .. يوم كأنه عمر الحياة . بنات الحور
مازلن يخنقنه .. أجبتها .. ربما .. ثم تذكرت دانيال .. وتذكرتك
أيضا فاستدركت .. ربما لسن بنات الحور .. ربما يكون قابيل هو الذى
يخنقه . ثم طلبت منها أن توقد شمعة ريثما يعود القمر !!

وســادة فــوق القمــر

جلست فوق المقهى الشعبى الصغير كالمعتاد .. للتو حدجتنى نظرات الفضول والشك والعداء .. تجاهلت النظرات وصفقت فجأة (الجرسون) العجوز بساق المبتورة . عرفنى بعد أن تفرسنى طويلا بنظراته الخابية .. تكاثرت أخاديد الهزيمة فوق جبينك يا صاحبى . صافحته وطلبت الشاى .. تباعدت عنى النظرات ، مصافحة العجوز لى أشاعت الأمان .. واصلوا اللعب يا أخوة .. واصلوا ليس الغريب «مخبرا» .. عاد الدخان الأزرق يتكاثف بعد ما تنفثه الحلوق المكدودة ويموج السحب فى الأركان .

جلب العجوز لى كوب الشاى واقترب يسألنى أن كان مجيئى كالعادة . فأجبت بايماءة سريعة تعنى الموافقة .. تركنى العجوز وغاب دقائق ثم عاد يهمس لى بالذهاب .. فدفعت الحساب وما فيه النصيب . وانزلقت من الباب فى هدوء بعد أن مسحت الزقاق بنظرات طائرة وتأكدت من عدم وجود عيون خلف نوافذ البيوت .. صاحبة المنزل البدينة ذات الوشم الأخضر تحت ذقنها تتربع على وسادتها العريضة فى وضعها المألوف تنفث من فمها سحبا من الدخان «التنباك»

الذى تجذبه بشدة وشبق من « شيشة » متوهجة الجمرات أمامها ..
وتنطلق سعلاتها متلاحقة يرتج لها الشحم المتراكم فوق بدنها ..
ابتسمت لى مرحبة وهى تشير الى حشية فوق البساط لأجلس عليها
.. ثم سحبت « مبسم الشيشة» من فمها تسألنى :

ـ أين أرضك .. حرمتنا من أنسك .. لك مدة ؟!

ـ كنت فى الصعيد . أمى مريضة ..

ـ سلامتها . (زبيدة) عادت الى زوجها فى (المحلة) .. دائما
كانت تسأل عنك طيبة هذه البنت وعشرية ..

انقبض قلبى . جئت من أجلها .. ذابت فقاعات الشوق السابحة
فوق سطح الرغبة .. وكانت تعطيها حيوة التوق .. ذابت ..!

ـ لاتحزن .. عندى ما يعوضك .. لماذا أنت حزين هكذا .. هنا بيت
الانبساط .. أفرد وجهك يا أخى . واضرب الدنيا (ألف صرمة» !!

لم أقل شيئا .. حاولت أن أبتسم ... ونادت على خادمتها فجاءت
العجوز الدميمة التى أعرفها بوجهها المستطيل المعروق المليئ بغصون
متجعدة ومتداخلة قالت لها :

ـ أحضرى وداد وفاطمة .. والبنت المنصورية ما حكايتها ساعتين
لها مع الولد الكهربائى ..

خرجت العجوز وهى تغمز لى بعينها ذات الرموش المتآكلة وأشارة

من يدها تعني منحتها المعتادة . أبغضك يا امرأة .. أبغضك .. كلماتها . مداعباتها . كل ما يحدث منها يثير في نفسي احساسا بالغثيان ... مداعباتها المكشوفة تعذب في دائما كل المشاعر التي أحاول أن اتجاهلها في كل مرة قمت فيها برحلة البحث عن لحظات تحدث هزة هروب لحياتي النامية في سراديب القرف.

جاءت وداد وفي أثرها فاطمة .. كل منهما ترسم ابتسامة تقطر أثم الزيف .. وداد فارعة رشيقة . بيضاء مشربة بحمرة تختلط بشحوب الارهاق . عيناها بلون البرسيم (فاطمة) سمراء ممتلئة ينسدل شعرها الأسود حتى يغطي جانبا من كتفيها لم يفلح الكحل الأسود الذي طمست به عينها الضائعة . أن يزيل نظراتها المتوجسة القلقة .. ابتسامتها (المريضة) .. كل ما فيها يؤكد أنها عانت من قبل مرارة الاحساس بأنها مرفوضة !!

عملية محرجة أن يكون للانسان حق الاختيار وجها لوجه في هذه المسألة .. تحتاج إلى شجاعة وربما صفاقة انسان لا أستطيع أن أكونه .. وداد تقف وهي تحدق في بجرأة واثقة بينما تقف فاطمة ساهمة .. توشك أن تلفظ الحياة ابتسامتها .. في عينها الاحساس بالهزيمة . برغم هذا تولينى نظرات مستجدة من عينها السليمة.

عندما رفعت نحوها رأسي شحنت نظراتها بضراعة تحاول أن تخاطب في شيئا بجانب ما جئت من أجله .. هرب بصري الى «شيشة» المرأة البدنية .. لامجال للانسانية هنا يا صديقتي .. ليست

هى التى تحكم الموقف وتحدده .. كلما هممت بانهاء عملية الاختيار الوقحة تربكنى مشاعر مبهمة .. تمنيت لو أن تواتينى الشجاعة لأغادر البيت نهائيا .. أشرت الى وداد أخيرا لأنهى التساؤل المتعجل فى عينى السيدة البدينة .. وبصرى الى الأرض مخافة أن يرتطم بخيبة الأمل فى عين فاطمة .. غفرانك يا أختى المهزومة .. أنا أيضا تمزقنى الهزيمة !!

وجهت السيدة كلماتها لوداد :

ـ اطلعى به فوق .. وكونى طيبة معه .. ابسطيه .. فهو « زبوننا ».

واردفت تخاطبني :

ـ أستاذ محمود .. ورحمة والدك . البنت « العوراء » مسكينة ومقطوعة ..

جاءت هاربة من « سنباط » ولاتعمل حتى بقوتها .. زكاة عن شبابك أعطها حاجة جبر خاطر !!

شعرت بالارتياح لأن فاطمة كانت قد خرجت حتى لايتسع جرحها..

وتبعت وداد الى الطابق الثانى . وأنا أكابد الاحتقار لنفسى .. نظرات فاطمة الكاسفة كانت توخزنى .. كل مرة جئت فيها هنا عانيت الاحساس بالكآبة والهزيمة لشعورى بأننى اشترى لحظات حب

مريض زائف أدفع ثمنها من اذلال كل الأشياء الطيبة فى نفسى .. كل مرة عانيت فيه اهذا الاحساس . خصوصا بعد الانتهاء من مهمتى .. هذه المرة جاشت نفسى برغبة فى البكاء ..

وفتحت وداد باب غرفة مغلقة النوافذ عتمة .. وهى تغنى بصوت يشبه مواء قطة حبلى ثم أشارت الى « لحاف » فوق الأرض فخلعت حذائى وجلست فوقه صامتا .. لم أنفوه بكلمة .. لم تبدر من يحركة.. كنت تائها يستغرقنى الاحساس بأن ثمة خيوطا ما تربط بينى وبين فاطمة .. ونظرت نحوى وداد حانقة مستغربة فأبعدت وجهى عن نظراتها .. طلبت منى بلهجة قرفانة شاخطة .. أن .. أنتهى !

أحدثت كلماتها ثقوبا فى كبريائى .. غرست فى نفسى شعورا حادا بالمذلة .. لم أكن مبتدئا أعرف أنها مسألة لامجال فيها لأن أطلب ما هو فوق امكانات الوضع . أعرف هذا . ولكنى تعودت أن أغلف هذه اللحظات . بمحاولة ابتعاث مشاعر متعاطفة بينى وبين الغربية التى أجدها .. لأغرق فى لحظات وجودى معها أزمانى النفسية التى أعانيها لاحساسى بأن حياتى تنمو فى وجه مقاومة متشابكة ، تشل أية محاولة لتحقيق ذاتى .. بجانب احساسى بالعجز عن تكوين بيت يخصنى .. ويعطينى هناء الحب وسلام المشاركة . ويعصمنى من تمزيق وجدانى فى بيوت عطنة .. كنت أغطى مهانة الوضع محاولا بلباقتى أن أوقظ فى التى معى مشاعر الأنثى العاشقة التى تعطى بقابلية لحبيبها

.. أنها حاجة لجسدى تتشابك دائما مع تطلع روحى الى الحنان .. كنت أنجح أحيانا .. وما أكثر اللواتى كن ينظرن الى كمخلوق خرافى وافد من أرض غريبة !! عادت وداد تتساءل ساخطة عن حكايتى .. فناشدتها بلباقة وحنو أن تكون طيبة لتعطى لحظات تعاطف لانسان مثلها . ما كدت أقول هذا حتى حدجتنى بنظرات مشحونة بدعارة روح أمتص السقوط تماما انسانيتها .

ـ يبدو أنك رائق المزاج يا أستاذ .. دعونا فى قرفنا وغلبنا .

أطرقت الى الأرض واجما .. « زبيدة» كانت طيبة معى .. كانت تدرك شدة حاجتى الى الحنان فتأخذنى فى حضنها وتهدهد أحزانى بحنان قلبها آخر مرة ليلة عيد الميلاد الغائت سألتنى عن أمنيتى ، فأجبتها بأن الموت هو أمنيتى .. فلا شئ يمكنه أن يقدم لى الخلاص غير الموت وحده .. فوضعت يدها فوق رأسى تسألنى .. لماذا لا أتحدث دائما الا عن الأحزان .. قلت لها بأن كل شئ يعطى ما لديه .. الحنظل لايمكنه أن يفرز الشهد . كات أحيانا تبكى معى وتختلط دموعى بدموعها .. أتراها سعيدة بالعودة لرجلها .. وموقفة ؟..

ـ أستاذ .. أنت .. خلصنا .. اليس ورائي غيرك .. اليوم الجمعة .. البعض موعدهم اليوم !

كبريائي تنزف الاذلال .. اغتال الهوان رغبتى تماما تثاءبت وغطت فى نومها .

ـ أستاذ .. خلصنا .. كنت تظنني تلميذة ؟!

خطر لى أن الأخرى .. فاطمة .. ربما كان لديها من طيبة القلب ما كان وفر على تعذيب مشاعرى هكذا . المخلوقات الكسيرة دائما قلوبها طيبة .. عندما طلبت من وداد أن ترسلها لى لم أكن أعنى غير أن أتخلص من موقفى معها .. نظرت الى فى دهشة :

ـ يبدو أنك « خلقى » جدا يا أستاذ .. طيب لاتغضب الواحدة منا مرغمة .. لو طاوعنا كل واحد على مزاجه لن تحصل على أرزاقنا .. كل واحدة فينا تجرى على عيالها .. الزمن رمانا . والمكتوب !!

وانطلقت زفرتها حارقة زادت من احساسى بالعار .. مسألة ارتزاق ، فلماذا أطلب المستحيل . ما دمت أدرك هذا .. زمان .. مفتش العربى فى المدرسة الثانوية سأل التلاميذ عن أحلامهم للمستقبل .. كنت وقتها شغوفا بقراءة قصص تتحدث عن الظلم وعذاب الانسان فأجبت بأنى أريد أن أكون زعيما يعمل لتخليص الانسانية المضطهدة من تعاستها . ويصنع للناس حياة جديدة . مغايرة . ينتقمون بها لكل تعاسات الأمنة !!

قهقة الرجل ساخرا من طموحى وهمس فى أذن أستاذى « تلميذك لديه خيالات ربما تتبعه .. يحلم بوسادة فوق القمر ! » هه وسادة فوق القمر ليتنى أراه . لأقول له تغيرت نوعية أحلامى يا سيدى . أحلم الآن بوسادة من تراب مقبرة !!

دنت منى وداد فابعدتها برفق .. فنظرت الى وتأكدت أنه لاجدوى من أية محاولة تبذل لاسترضائى .. فغادرت الغرفة وتناهى الى صوتها وهى تقفز درجات السلم وتنطلق قهقهتها عربيدة صاخبة :

ـ تعالى له يا .. فاطمة هانم .. الأستاذ بسلامته من هواة الحب ..

حب .. ! القروش التى أدفعها هنا اقتطعها على حساب حاجات ضرورية لى .. ولكن ماذا أفعل . قوة قاهرة تدفعنى للمجئ .. كلما تكاثرت أحزانى . عسانى أغرقها فى تشنجات الرحلة الملتاثة .. وجاءت فاطمة فى نفس اللحظة التى أزمعت فيها مغادرة البيت نهائيا .. جاءت متهللة الأسارير فرحة .. وقد أسدلت خصلة من شعرها فوق العين المفقودة .. ابتسمت لى خجلى وهى تقترب منى سائلة عما حدث .. ولم أجب بشئ فدنت تحاول الالتصاق بى . فقبلتها فوق خدها .. ثم أبعدتها منى عندما همت باحتضانى .. فانبثقت الدهشة غير غاضبة من عينها :

ـ مالك .. عصفورتك .. خاصمتك .؟!

عصفورة .. لى أنا .. ! ليست لى حتى بومة تخصنى ..

كانت لى واحدة وكنت أدعوها فعلا عصفورتى .. كانت تشقشق فى خميلة أحلامى .. وكنت أدخرها للغد بعدما اتخرج من الجامعة . وافترش بجوارها وسادة فوق القمر .. ومات أبى وترك لى كتاكيت على أن أطيل أجنحتها .. وماتت أيضا أحلامى .. وسدتها شركة

المقاولات فى مقبرة الأرشيف .. مرتبى أبعث بأغلبه لبطونى العائلة فى الصعيد قلت لعصفورتى ما دامت قد ألقت على عاتقى بالمسئولية فيجب أن أكون فى مستواها وأننى لم أعد أستطيع توفير السعادة لعصفورة مثلها ..

بكت عصفورتى .. قالت لى بأنه ستكون سعيدة معى .. سواء فى « هيلتون » أو فى أى « بدروم » المهم أن تكون معى .. وبعد ذلك لا أهمية لشئ اطلاقا .. بدموعها والتياعها . ولهاث قلبها أكدت صدق كلماتها .. لا .. حرام .. يا صغيرتى أن تموت أغاريد العصافير فى الربيع .. حرام .. وهربت منها . لماذا أقبر أحلامى ربيعها فى سراديب مشاكلى .. انها الآن زوجة .. وأم .. وربما كانت سعيدة !!

ـ أحك لى عنها .. عصفورتك .. أرنى صورتها ..

أمتدت يدى تمسك بخصلة من شعرها فنامت رأسها على كتفى .. برفق رفعتها . ثم تحاشيت نظراتها ووضعت يدى فى جيبى وأخرجتها بورقة نقدية صغيرة وضعتها فى يدها وتوجهت نحو الباب صامتا .. قبل أن أخرج كانت قد لحقت بى ..

ـ أستاذ .. قل لى .. ما هى حكايتك ..؟

ـ أبدأ .. أشعر بصداع .. واعياء .. رأيت من الأفضل أن أرجع إلى البيت لأنام ..

وأردت أن أواصل المسير ولكنها تصدت لى ووضعت الورقة فى

جيبى بهدوء وانسابت دموعها..

وبلعت ريقى عدة مرات الى أن وجدت الكلمات ..

- فاطمة .. لا أعنى شيئا مما خطر لك .. صدقينى .. المعلمة أفهمتنى أنك جديدة هنا .. ربما تكونى فى حاجة إلى شئ .. صدقينى أننى مريض .. سأعود لك مرة أخرى ..

كآبة صارمة تختلط بالدموع فى عينيها ..

- لا .. استبقها فلوسك لنفسك .. يا سيدى .. تنفعك لواحدة أخرى .. حلوة .. لن أسمح لأحد ولو أكلت حتى تراب الأرض أن «يجبى » على !!

وأعطتنى ظهرها .. ومشت تشهق بدموعها .. لا جدوى حتى من الكلمات .. ما جدواها ؟ ..

وضعت يدى فى جيبى وهبطت الى الدور الأرضى بخطوات متثاقلة بالهزيمة لأجد العجوز فى انتظارى .. وهى تمد لى يدها .. وصاحبة البيت البدينة تجذب أنفاس شيشتها وترحب بزائر جديد !!

يوحنـــا الأمريكى .. يبشــر فى الحانة

توقف عن كثب من الحانة ، ينفض قطرات المطر عن شعره المتهدل ، لايمكن بسهولة تحديد العصر الذى ينتمى اليه طراز ملابسه . وجهه هو الآخر لاجنس له ، ولكن نظراته الكاسفة الثملة تطل منها جهامة تختلط بخيبة أحلام أمريكى قديم .

قذف قشرة موز بقدمه ثم امتدت يده اليمنى تسند قلبه وقد جحظت عيناه وأطلت منها أعماقه المخمورة وهو يحنى قامته ويتقيأ من بطنه سائلا أصفر تتشابك به خيوط الدم وشرائح الرنجه . قذفه صاحب حانوت الخضراوات بجزرة معطوبة وأختفى داخل الحانوت . ورسمت الراهبة التى كانت تطل على الميدان علامة الصليب وأغلقت أضلاف النافذة !!

استرد العجوز أنفاسه وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه يشمها . ابتلع منها جرعة فتزايدت كآبة الثمل فى عينيه . ثم سحب من تحت ابطه توراة قديمة مغلفه بجلد الماعز وأخذ يقرأ فيها بلاصوت وهو يترنح والكلمات تلهث داخل حلقة !!

« يوحنا يصلى من أجل العالم !! »قالها الزنجى الفارغ القامة لرفيقته الشقراء ودلف داخل الحانة .. أغلق العجوز كتابه ثم تحرك من فوق الرصيف يحدق فى المارة يشير لهم بأصابعه الى بعيد ، البعض كان يومئ له بالتحية والبعض يتجاهله ، والصغار يقذفونه بنكاتهم وتنطلق قهقهاتهم نزفة ثم لم يواصلون المسير !!

اللعنة عليك يا « أورشليم» قذف بها فى وجه المدينة ثم جلس فوق الرصيف يفتش فى جيوبه أخرج الورقة البنية الممهورة بخاتم وزارة الدفاع وفردها يتأمل فيها ببلاهة وعليها تتساقط دموعه .. «ريتشارد .. مات يا جدة .. الفيت كونغ قتلوه فى الغابة » ولوح بالورقة تجاه العجوز وقال .. « مكنمارا يقول انه مات من أجل شرف أمريكا ..» توقفت العجوز لحظة ، ثم أخرجت من جيب معطفها الداخلى ورقة مماثلة ، ونظرت اليه والى الزجاجة بجانبه .. ومضت فى طريقها تصفع الأسفلت بخطواتها اللاهثة .. اقتربت مجموعة من الغلمان متدلية شعورهم على جباههم واقفيتم .. فترك العجوز الزجاجة والتوراة على الرصيف ونهض يعترض طريقهم ..

« ريتشارد ماتُ يا عيال ، معبود هارلم الأبيض .. بطل الرجبى الصغير .. معشوق فتيات الجامعة الأنيقات أخذه الجنرالات وأضاعوه فى الأرض البعيدة .. حتى جثته لم يعيدوها الى يا عيال ».

تدافعت قهقهات الصغار .. ومد أحدهم يده يداعب ذقن العجوز . وخطأ آخر الى الرصيف وجاء بالزجاجة يفرغها فى حلقه .. « اشرب يا جون العجوز يمكنك بهذه الطريقة أن تلتقى بروحه » !.

« دعه يا ابك .. عندنا مواعيد مع بنات الآلات الكاتبة فى الشارع الخامس لاتعطلنا يا جون العجوز ! » لحق بهم يتابع خطواتهم ..

« بحق يسوع لاتذهبوا يا عيال .. الدور عليكم يا خنافس الجيل .. الموت هناك .. والوباء .. شرف أمريكا لايحميه القراصنة » وأمسك بالسلسلة فوق صدر الغلام الأشقر .. « قلت لاتذهبوا ، الجثث متناثرة فى الغابات وقاذفات القنابل تنفث الموت . بحق يسوع موتوا هنا .. بوذا لايملك هناك الا نحيبه !!».

تراكض الصغار فى كل اتجاه ، وتركوه يخاطب الخواء .. كف عن الجرى خلفهم عندما دنت السيدة الشابة تمسك بيدها وليدها الصغير .. « سيدتى . أنت بحق العذراء عودى .. الموت فى الطريق .. وديع هذا الملاك كالعصافير ، جنرالاتنا أبادوا هناك كل العصافير .. حتى الغربان نفقت أيضا .. القموها حجارة من سجيل .. ضعيه يسوعنا الصغير فى مذود البقر وانتظرى ربما يأتى المجوس ويضمخون قدميه بالطيب .. ويكون ملك العالم ربما .. فمن الممكن أن ينحسر الطوفان وتنبت الخضرة فى اليابسة من جديد .. عودى . نوح أقلع بالسفينة .. أصعدى بوليدك الى « الجليل » وانتظرى ريتشارد .. ولدى

قد تدفع به الموجة عبر المحيط .

أطلت مارى العجوز من داخل الحانة تناديه ..

« تعال يوحنا .. تعال أيها الولد العاق . زبائنى أوحشتهم بركاتك تعال لتطوب السكارى فى حانة الجدة مارى .. عندى رسالة من سايجون .. سارة تواصل صلاتها من أجلك هناك » .

لم يلتفت اليها .. أعترض طريق القس الشاب وهو يتأبط اسطوانات الموسيقى ونسخة من مذهبة من العهد الجديد .

« أبانا .. أيها المبارك . قل . هل ينجو نوح ومن بالسفينة . قل يا أبانا من ستكون له الغلبة نوح أم القرصان .. الأسطول السادس يا أبتاه يجوب البحار ، قل لأتباع كنيستك أن لا يذهبوا .. سيأتى هنا من تلقاء نفسه ليخلصهم سيأتى هنا بلا خوف فلن يسوقه كهنة البورصة الى الجلجثة . أقول هذا أنا النقابى المفصول ، خصم مكارثى القديم لن ندعه يساق الى الصليب . لن نترك روكفلر يقيم عليه الدعوى . ولن بسمح لمورجان أن يحاكمه !» .

قطب القس جبينه يتمتم بكلمات مبهمة وهو يواصل سيره والعجوز يلاحق خطواته .. « تكلم يا أبانا قل لهذه الحبلى أن تأوى الى جبل يعصمها . السفينة أقلعت وغاب الشراع . سيدتى هذا الذى

ببطنك لن تذهبي به .. تعالى أعمده لك ويتلقى كرازة يوحنا العجوز، لن تجدى هناك الا الصحراء والرمال ستكون فراشك لمند المنحاض .. وربما يكون قابيل الصهيونى متخفيا هناك ينتظر تعليمات وول استريت !».

كان القس قد اختفى بينما العجوز يخاطب الحبلى .. فعاد ادراجه داخل الحانة وهو يقذف فى جوفه بقية الزجاجة ، هلل السكارى عند دخوله . كفت موسيقى الجاز عن جنونها . توقف جسد « سالومى» عن لهاثه .. أهلا يا يوحنا .. هنا يا جون على حسابى نبيذك الليلة .. تعال لتباركنا نحن المساكين بالروم.

تطايرت نظراته بين الموائد واتجه الى مارى العجوز مباشرة يتقاسم معها مقعدها بجوار البار.

« كأس يوحنا يا سالومى . جائتنى منها رسالة يا جون . تسأل عن أخبارك أيها العجوز .. كان يجب أن أمنعها يا جون . تركتها تذهب وحيدة عزلاء تسكب النبيذ لأولاد أمريكا هناك .. أكتب للرئيس كى يعيدها الى يا جون .. حرام أن نتركها للصقور هناك . قد تكون مارقة ولكنها من أحشائى منسوجة تلك النمرة الشرسة سارة» ..

أفرغ الكأس فى حلقة مرة واحدة وهو ينظر الى صورة « كيندى» فوق الجدار المواجه له . « قلت له لا تذهب يا ريتشارد .. الموت هناك والعار .. لم يصغ الى الصغير الحالم .. قال لى أمريكا فى محنة .. لم

يصدقنى .. قلت له ليس وطنك ذلك الذى انتويت أن تصلب الحرية فيه أنت من تكساس . فلماذ تخوض الجحيم فى سايجون .. لم يصدقنى عاد يتحدث عن شرف أمريكا.

خدعة محرر « التايم» الذى يقبض اكراميات « كارنيجى» ورحل مع قافلتهم الذاهبة لتعذب الحياة فى وطن بوذا .. راح الولد الطيب ليغمد السونكى فى عنق الفجر .. ومات . ولدى الأشقر بطل الرجبى الوسيم».

وأخرج الصورة من جيبه يبللها بقبلاته الباكية فتناولتها منه العجوز وهى تنظر الى صورة سارة فى اطارها الخشبى فوق البار . وانهمرت هى الأخرى دموعها..

« كانت تعبده يا جون . لم تجد الدموع عندما تلقت الخبر . أغلقت رتاج الباب عليها ترفض الطعام ثم خرجت تقول لى بأنها ذاهبة الى هناك تبحث عن الخلاص بطريقتها الخاصة .. ستعطى نفسها لأولاد أمريكا الضائعين هناك.

حيث لا وطن ولاقضية . ذهبت لتعطى روحها لولدك المقتول هناك. وتركتنى لسخافات السكارى وآلام النقرس فى مفاصلى ».

استرد العجوز الصورة من يدها . ونهض واقفا يمر بها على زبائن الحانة . قبلتها سالومى الساقية . فانتزعها منها بغضب وهوت كفه

بصفعه على وجهها . اللعنة عليك يا ابنة الزانية .. نظرت سالومى الى صدرها العارى وهطلت دموعها ثم دفنت وجهها فى رخام البار تنتحب .. قذفه شارلى عامل الميناء ببقايا الخمر فى كأسه . « جون كن ولدا هادئاً .. لم أقلع عن احتراف الملاكمة بعد . سالومى بنت طيبة » .

« اهتز قلب العجوز لنحيبها وبدت عليه كآبة الندم فذهب يربت بيده المرتعشة فوق كتفها » ..

« عفوك سالومى .. تعالى أعمدك .. لم تذبحى أنت يوحنا .. قتله مكنمارا .. خذى ضعى فمك فوق خد ولدى .. فتى أمريكا المعبودة الشرسة » ..

واختنق حلقه بالبكاء وهو يواصل كلماته فى همس حزين حالم :

« لكم كنا نحب أمريكا يا رفاق .. أعطيناها عصارة القلب لنحميها من جراثيم التاريخ . أردنا أن نزفها بعذريتها البريئة الى عصر جديد عروسا تسكب الطهارة فى قلبه .. ولكن القراصنة اختطفوها مناونحن فى غفوة الحلم .. قبليه يا سالومى . أنها صلاتك من أجله . جففى هذه الدموع لأباركك .. أباركم جميعا نفاية أمريكا وبثورها . يا من تركتموها تسقط وجئتم لتغرقوا تمزقات عاركم فى النبيذ . أباركم . أبارك سارة الراحلة تبحث عن الخلاص . وتحتمل رجم قبلاتهم السكرانة . عساها تجد ولدى . لقد باركها هو عندما دهنت قدميه بالطيب والقم التلاميذ أحجارا فى أفواههم الفاغرة دهشة » .

« جون العجوز . كفاك ثرثرة . . أوجعت أدمغتنا بهذيانك أن كانت السياسة مهنتك فاذهب الى الكونجرس . . ودعنا لغلبنا بلا غد يومنا . الساعة قادمة شجرة التين أورقت . وأورشليم سقطت ودخل القطيع التائة باللعنة بيت الرب قلت لهم هذا فطردونى من كنيستى الصغيرة يا جون . . قالوا بأننى أجدف . وأصبحت بلا رعية أنتظر الخلاص فى حانة الجدة مارى . صمتا يا يوحنا لاتوجع قلب الكهنوتى المطرود ».

« لا . . دعه ياراسك وأشرب نبيذك فى صمت لم تأخذ نحن كنيسك . . تابع يا يوحنا قل متى سيأتى الذى لاتستحق أنت أن تغسل قدميه هل سيأتى ليباركنا فى الحانة ويعيد لنا الأولاد من آسيا . . ستقدم له سالومى كأسا من أعناب يافا».

اقترب العجوز من الكاهن المفصول وتناول الزجاجة من فوق مائدته وأفرغها فى جوفه بلا كلمة « هذا كلام الكهنة ، والتايمز والفريسيين أيهما القس المخلوع . . أقول لكم أنا يوحنا النقابى طريد مصانع الصلب . . شجرة التين التى أورقت زائفة . . لم تعطها التربة عصارتها . . صنعت هنا فى قوارير الاختبار . أوراقها المصنوعة فى المعمل سوف تجف ، أغصانها المدهونة بخضرة الزيف سوف تتساقط فلا أصلها ثابت ولافرعها فى السماء.

لقد صنعها الكهنة ليدخلوا بها بيت الرب ويجمعوا تحتها أحقاد

العصور عساهم ينتقمون لعارهم فى التاريخ . ومهما عربد الأشرار فالشمس تشرق من هناك وحتما سينجاب الضباب ويسطع أفق الخلاص . .

« تابع يا يوحنا . . تابع . هذا كلام الأنصار يتلى من جديد . كأسا ليوحنا على حسابى وتعالى لتأخذنى نقودك يا سالومى » . .

من جديد أخرج العجوز صورة ريتشارد من جيبه وأغمض عينيه وأدناها من فمه يلثمها . . ثم أزاح الزنجى المخمور من فوق المائدة وصعد فوقها يحاول أن يصلب عوده .

« الحق أقول لكم . لتكون أمريكا لنا وملكوت السموات . أوقفوا الطوفان . أوقفوه . . اقيموا السدود اقتلوا التنين أغمدوا الحراب فى أمعائه . . خلصوا فتاتنا من أحضان التجار ، وسيأتى حينئذ ليخلص العالم ويعطيه لنا . . . . سيأتى ليخلص العالم ولدى ريتشارد سيأتى . ويطرد كهنة النقابة وسماسرة الكنيسة ولن يسوقوه الى الصليب هذه المرة . لن يسلمه يهوذا ، ولن يحاكمه بيلاطس . فستحميه الملايين المنتظرة بشبق الخلاص . ويكون لها . لأنه من داخلها جاء ، وفى البدء كان فيها وسيطرد الكتبة . . ويغنى « روبصون » لنا وللسود . . ستأتى قوافل الصين وتندمل جراح هانوى . ونعطى القمح لجياع الهند . . ويعاتقنا الذين أحرقت قنابلنا أرزهم وتقوم دنيا جديدة ، يخضر بها زيتون المحبة وبرتقال السلام . . وندخل جميعا بيت الرب . . ولكن

الحق أقول لكم .. علينا أن نحتمل آلام المخاض . أن نحتملها حتى الموت .! » وهن صوت العجوز وغدت الكلمات تخرج ميتة بلا صوت من فمه .

هبط من فوق المائدة .. وقد غامت عيناه وهو يترنح ويده فوق بطنة ثم تداعى فوق المقعد وألقى برأسه فوق رخام المائدة . أغرق الصمت الحانة . سحب الزنجى قيثارته يخرج منها أنغاما متأوهه .. تقدمت مارى العجوز تجس كفه فانتفض من يدها باختلاجة حياة عابرة ، وأخرج صورة ريتشارد من جيبه يحدق فيها بنظرات خابية منطفئة ثم أعطاها للعجوز مع صليب نحاسى صغير .. ومن جديد تداعت رأسه فوق المائدة .. أناخ الزبائن ذقونهم فوق الصدور .. بينما تعالت أنغام الزنجى تنفث الكآبة .. ومازالت يد مارى تطبق على كف العجوز بدون أن تعرف .. هل يوحنا فى غفوة . أم أنه كان يلفظ أنفاسه !.

الساعة الـ ٢٥

الظلام دامس .. شع الضوء خافتا فى البداية .. اتسع رويدا رويدا حتى أصبح متوهجا كالحريق .. خفت من جديد وتركزت بؤرته على الجثة الملقاة تحت الجدار هامدة وقد تجمد الدم حولها والصغير الأسمر بجانبها يحدق فى الضوء مبهوتا .. لم يستطع الموت أن يغتال الشعاع المنبثق من أغوار عينيها .. تبدو كأنما مجرد غيبوبة قد جرفتها متاهتها. الدم وحده يؤكد بأن الموت قضى وطره .. ثمة رجل يقف فى الوسط يحمل تحت أبطه لوحة على شكل خريطة جغرافية .. ينظر إلى الجثة صامتا . لم يكن مدهوشا كان مجرد حزين !!

عندما هم بأن يحمل الرضيع من فوق الأرض تناهى اليه صوت رجل آخر ظهر فجأة .. لايعرف هل كان متواريا أم طفر من أعماق الأرض .. كان يحمل غدارة فى يده..

ـ قف أيها الأبله .. لم يعد الآن ينتمى لك .. لا منجاة لك.. لا أحد يفلت منا .. من متاهات الفضاء كنا سنأتى بك .. من أعماق المحيطات كنا سنعيدك..

نظر الى الوراء وجد الغريب يوجه فوهة الغدارة إلى ظهره .. عاد يحدق فى الجثة محاولا أن يخفى اللوحة داخل قميصه..

ـ قتلتموها .. أخيرا .. كان هى على يقين من هذا المصير . أبدا لم تحفل منه . قالت بأن من يختار درب الإنسان عليه أن يستعد لملاقاة الأهوال .. وكانت واثقة بأنها لاتموت زبدا .. تبعث دائما وتمتد فى كل نبت يخرج من التربة من جديد .. قتلتموها أخيرا .. ولكن الطفل ليس بوسعكم أن تنالوه فقد أعطاه الزمن حصانته .. يوما ما سيجعلكم تدفعون ثمن كل عذابات الأجيال .. قتلتموها أخيرا ..

ـ أنت وحدك المجرم .. قتلتها بتمردك المهزوم .. بأحلامك الحمقاء ... كنا نعرف أنها الوحيدة التى تعرف سر شفرة خريطتك تلك اللعينة .. رفضت أن تتعاون معنا . لقد استبقينا الطفل رهينة عساك ترعوى فى النهاية .. طاوعنا . فك لنا رموز الشفرة نبق لك الصغير .. واهم أنت لو أعتقدت بأن تعويزة دراويش التاريخ سوف تحميه .. وسائلنا الالكترونية أبطلت مفعول السحر يا قديسنا الموهوم ..

ـ لا أبدا .. لن أعطيها لك . هذه اللوحة لاتخصنى .. أمانة هى عرضت على كل الكائنات فأبين أن يحملنها وحملها الانسان انه كان جسورا .. جيل ما بعد الطوفان لابد أن يعرف .. لايمكن أن ينمو تاريخه الجديد فى وجه السديم.

انشقت الأرض .. طفرت منها بعض الأطياف .. ظلت تحوم حول

الجثة لحظة ثم حملتها والطفل معها تحلق بهما وهى تنشد تراتيلها بلغة مجهولة .. ثم أخترقت السقف وطارت بهما فانطفأ الضوء وعم الظلام حالكا كما كان فى البداية .. اندفع حامل اللوحة يجرى .. ركض حامل الغدارة خلفه يلاحقة ..

الشمس تسطع فى الأفق .. ولكن الظلام يطبق على الكون . ومن السماء تتساقط النجوم ميتة فوق الأرصفة .. حامل اللوحة يجرى .. حامل الغدارة يجرى فى أعقابه ..

المدينة مزدحمة .. مكتظة بالأجساد التى تتراكض لاهثة .. ولكن الصمت يطويها .. لا أحد يتكلم .. لا أحد حتى يومئ المدينة كلها خرساء .. الخوف فى العيون .. الرعب فى الخطوات لاصوت غير نعيب بومة ينعق حادا فى الفضاء .. حامل اللوحة يجرى .. حامل الغدارة يركض فى أعقابه ..

ارتطم حامل اللوحة بعجوز تحمل طفلة مشلولة فوق كتفها فاعترضت سيره ..

ـ يا عابر السبيل ساعدنا لنلحق بالقافلة من (سادوم) نحن .. ضللنا الطريق . البنت ظامئة والطاعون يغزو مياه تلك المدينة ..

التقط أنفاسه يحاول أن يحمل المشلولة عنها فوجد حامل الغدارة قدامه .. لم يره ولكن تناهت اليه كلماته ..

ـ لا تتعبنى بلا جدوى .. محكوم عليك بالهزيمة .. أرحنى وأرح

نفسك . فك لنا رموز اللوحة . أعطنا مفاتيحها . . هذه المناطق الغريبة المرسومة عليها أعجزت أساطين علماء الجغرافيا عندنا . . لن تستطيع الافلات . من بلاد واق الواق سنأتي بك . لو أعطيتنى مفاتيح الشفرة بشرفى سأتيح لك محاكمة عادلة . .

لن يعرف الذين تنتمى اليهم أنك كشفت السر . . وربما تكفل لك الاستقرار فى قارة تلجأ اليها . . ويمكنك أن تعمل فى المنفى لحسابنا . .

ـ قلت لك لا . . ماذا تفعلون بها . . أنها جغرافيا علم ما بعد الساعة الخامسة والعشرين بعد ما تأخذكم الصاعقة . . ويجرفكم الطوفان . . ويأتى يوم الانسان . . ! !

ـ لسنا من البلاهة حتى تستغفلنا أنت . . شفرتها تحمل مفاتيح لغزو العالم . .

تشاغل حامل اللوحة بانزال المشلولة من فوق كتف العجوز واندفع من جديد يجرى . فجرى حامل الغدارة خلفه يلاحقة .

لاحظت الجموع بأن الرجل يجرى في اتجاه مخالف لاتجاههم فاستداروا يعاودون الجرى فى الاتجاه الذى يمضى فيه . لايعرف أن كانوا يطاردونه أم يهربون معه . . ضاع حامل الغدارة فى الزحام . . من بعيد سطع ضوء لاحت على وهجه المقابر المهجورة متشابهة بلا شواهد . . اختفى الوهج وساد الظلام مرة أخرى . . ومن جديد اندفع نعيق البومة زاعقا فى الفضاء . .

نظر حامل اللوحة حوله .. كان وحيدا ..فتوقف يلتقط أنفاسه ..

سطع الضوء من جديد .. هب الموتى من المقابر يحدقون فيه بعيون فاغرة .. فارغة كالثقوب ..

ـ من أنتم .. من أنتم .. هذه الرائحة شممتها من قبل فى (هيروشيما) فى .. (كربلاء) فى (دير ياسين) ؟

ـ نحن الذين قلنا لا للجحيم .. فقأ الرخ عيوننا .. قل لنا هل جاءت السفينة .. أم تراه نوح قد خدعنا ..

لم ينتظروا اجابة لسؤالهم عادوا من جديد داخل قبورهم .. الأرض تلمع .. تتحرك .. أسراب من الذباب تهوم فوقها طارت واحدة واندفعت داخل حلقة فانطلق نعيب البومة ملتاثا .. فوجئ من جديد بحامل الغدارة قدامه وقد تدافعت قهقهاته عربيدة منتصرة.

ـ قلت لك لا منجاه لك .. ها قد نفذ الوباء داخل جوفك .. انها سرطان العصر أما أن تتوافق معه أو تتمزق أن توافقت نعطك عقار الهلوسة ..شئ لذيذ أن تحتضن (زازا جابور) فى أحلامك . . مليارات روكلفر .. وكنوز قارون لاتعادل هذه المتعة .. ان ترفض ليس لك غير أن تنتحر من داخلك ..

ـ جف حلقى .. أعطنى جرعة ماء !!

ـ أنت أبله يا هذا .. قتلت أنا الحسين لأنه طلبها لوليده ذات يوم فى (كربلاء) .. أنت غريب يا هذا .. اتحلم كثيرا .. عندما كنت

صغيرا أكانت لك جدة تهدى عن (الشاطر حسن) ؟!

- لاتذكرنى بها جدتى العجوز .. كانت طيبة تحب الملائكة . والفجر .. وتغنى لنسمة الشروق وتصادق بالليل نجمة بالأفق البعيد .. مع حواديتها كنت أحلم بأن أكون الفارس الذى خلص أميرة الشمس من أنياب غول الظلام .. ماتت جدتى وفى فمها علقم الاحباط .. ولكنها أوصتنى بتخليص الأميرة .. آهاتها المعذبة كانت تمزق منها نياط القلب . !

- غبى أنت .. ألا تعرف أن أنياب الغول ذرية .. (جيمس بوند) وحده الذى يصرع الغول .. أيهما تحب أن تكون ؟ جيمس بوند أم الشاطر حسن ؟!

- أحب الشاطر حسن .. عاشق أميرة النور .. فى مكان ما من هذا العالم يوجد هو .. مهمتى أن ألقاه لأصطحبه فى مسيرة الخلاص قبل أن تبدأ الساعة الخامسة والعشرين ..

- وهذه الخريطة هديتك اليه .. أصدقنى ..

- يا حامل الغدارة . أنا أعزل فلماذا لاتقتلنى ؟

- ليست تلك مهمتى ..

- أنت شرير ..

- أنا أيضا أقول هذا عنك . قالها وسحبه من يده وغادرا مدينة

للموتى ..

ـ لنأخذ برأى الناس فى هذه المسألة .. سيدتى من فينا المجرم ؟ الذى يحمل اللوحة أم الذى يصوب الغدارة ؟ ولدى من فينا المجرم الذى يحمل اللوحة أم الذى يصوب الغدارة !!

ـ لم يجب أحد كانوا يحدقون فيهما ببلاهة ثم يواصلون مسيرهم وهم يركضون .. أعترضهم حامل الخريطة .

ـ قفوا لحظة لنقل لا للجحيم .. قادمة هى الساعة الخامسة والعشرون .. لست بكاهن أنا . لست بساحر أنا .. أنها نبوءة عثر عليها الشاطر حسن فى أحد كهوف أورشليم !! انطلقت قهقهة حامل الغدارة ..

ـ ناس هذه المدينة مصابون بالصمم .. أقذف بكلماتك أن شئت فى الخواء للأبد ! فغرت الأرض فاها .. خرج من جوفها بعض الناس .. واحدة من العجائز قدمت الطفل لحامل الخريطة وهى تخبره بأنهم كلفوها بهذه المهمة .. اجتازت به الفيافى والقفار محاولة أن لاتراه عين الرخ وأن لاتشمه خياشيم الغيلان .. قبل أن يصل الطفل إلى ذراعسه كان قد اختطفه حامل الغدارة .. كان الطفل يلعق شفته من فرط العطش !!

ـ أعطنى الطفل .. أعطه لى .. قتلتموها . فما ذنب من لم يرضع بعد من ثدى الأحزان ؟

ـ الطفل لايدخل فى نطاق مهمتى .. قل لى سّر الخريطة أعطه لك .. وجوده لايهمنا .. يهمنا أن يعيش بلا ذاكرة .. أجيال أنابين الاختبار القادمة يجب أن تعيش عصر الوفرة بلا تراث . نريدها أن تنجو من عقد التاريخ !!

جاء رجل عجوز يحمل مبخرة فى يده وتتدلى المسبحة فوق جلبابه المخيط من خرق مختلفة الألوان وقف بينهما وهو يقذف المسحوق الأبيض فى جوف المبخرة ويتمتم بتعاويذ غامضة ..

ـ أيها الدرويش أمعك جرعة ماء .. هذا الوليد يكاد يقتله الظمأ !.

ـ لاتقل هذا يا ولدى .. عملاء (بنى أمية) يرمونه بالسهام لو سمعوك .. (يزيد) سيدفع ملايين الدولارات لمن يحمل اليه رأسك !!

ـ هل رأيت الحسين يا جدى ؟

ـ شاهدته عند مشارف الأفق يسلم المصاحف لرجاله والمدافع . لماذا تخلفت عن السفينة يا ولدى .. اقتربت الساعة وانشق القمر .. قالها وامتطى بساط الريح !

أطلق حامل الغدارة ضحكاته ..

ـ السفينة .. ها ها .. لقد غرقت فى قاع المحيط . اعترضتها حاملة الطائرات ودمرتها الغواصة بالصاروخ !.

ـ نوح .. قل لنا ما مصيره ؟ قذفت بالسؤال واحدة من العجائز بعد أن توقفت عن جريها .

ـ ربان السفينة .. غالبا يغرق معها .. يا حامل اللوحة(صابرة) أمرأتك كانت بالسفينة ابتلعها نفس الحوت الذى ابتلع (يونس) صاحبك القديم..

ـ أحبها يا لها من أنثى رائعة كانت .. فى أنفى مازالت رائحة أنوثتها .. لذيذة عبقة .. لها سحر عجيب .. عجيب سحر (صابرة) . كم بكينا تحت ضوء النجوم . والنجوم كم بكت معنا أيضا .. ذات ليلة بكى معنا القمر كذلك .. على خد حبيبتى تساقطت دمعته فسفورية ساخنة .. حذرتها من الجحيم .. قلت لها طريق الذين يحملون أبواب المصير فوق كواهلهم ملئ بالأشواك والأفاعى ورياح السموم .. أجابت فليحمل كل منا صخرته ونمض فى رحلة الآلام عساه ينزاح الجحيم ..

خرج الدرويش من جوف الأرض يحمل مبخرته من جديد . أشار لحامل الغدارة يقول :

ـ لاتصدقوا هذا الزنديق .. لاتصدقوه .. رأيت الحسين بنفسى يرفع الشراع على متن عباب المحيط .

ـ يا حامل الغدارة لماذا تطارد حامل اللوحة .. قالتها صبية بيضاء ذات ضفائر مجدولة.

ـ يعتقدون أنه المسيح .. أرسلنى (بيلاطس) فى أثره أنا مجرد

عبد المأمور !!

جاء طفل يجرى لاهثا يخاطب الدرويش ..

ـ يا معلم لاتدعهم يصدقون هذا الرجل .. كلماته حبلى بالأكاذيب قال لنا ذات مرة بأن المسيح ذهب إلى القطب لينقب عن الحفريات القديمة واقسم بأن (المجدلية) كانت فى وداعه .. عمياء قريتنا تقول بأنه سافر لمهمة أخرى .. قالت بأنه سيعود تماما فى الدقيقة الأولى من الساع الخامسة والعشرين .. سيعود ومعه شهيد (كربلاء) .. أنهما بالسفينة يحاولان اكتشاف القارة المجهولة .. اقترب الطفل من حامل الخريطة ..

ـ أيها السيد العمياء تبحث عنك .. كلفها الشاطر حسن بمهمة تخصك .. لقد هربت من جحافل التتار فى أورشليم لتعطيك رسالته .. ها هى قادمة .. تعالى يا جدتى العذراء .. جاءت المرأة واقتربت من حامل الخريطة تهمس فى أذنه .. فقبل يدها ثم انطلق يجرى وهو يحتضن الخريطة الى صدره وحامل الغدارة يلاحقه ..

ـ كان ثمة رجلان يركضان فوق الرصيف المواجه قال الأول للثانى ..

ـ لنغادر هذه المدينة .. انها تعيش خارج نطاق الزمن .. انها بلا تاريخ بلا ملامح بلا شمس .. بلا نجوم . . بلا شفق .. بلاغروب .. أجاب الآخر :

ـ لايهم .. كل المدن سواء . عاد الأول يقول :

ـ أنا ذاهب الى القارة الأخرى هناك معركة .. هل تأتى معى ..

ـ فى أى جانب ستقاتل .. الثوار أم الأشرار .. أجاب الأول بقوله :

ـ هذه ليست قضيتى .. أنا ذاهب لمجرد أن أموت ..

ـ هذا فراق بينى وبينك .. لن أستطيع لك صبراً .. قالها ومضى يركض فى اتجاه مخالف للاتجاه الذى مضى الآخر فيه .

ـ قف .. أيها المجنون .. قف .. قالها حامل الغدارة لحامل الخريطة ثم أردف ..

ـ وعدت أن أسلمك حيا .. ولكن لقد أنهكتنى المطاردة .. بلغت قمة اليأس تعال معى أو أقتلك .. سأقتل نفسى أيضا فلن أنجو من المحاكمة لو عدت بدونك ..

نظر حامل اللوحة الى الأفق كانت النجوم قد كفت عن التساقط ميتة فوق الأرصفة ..

ـ كم ساعتك الآن يا حامل الغدارة ؟

ـ الرابعة والعشرون الا دقيقة ..

ما أن قالها حتى كفت البومة عن نعيقها .. هوت الى الأرض ميتة . وأنطلق فى البرية صوت يبشر . طوبى للمساكين بالحب . طوبى للمساكين بالحق .. طوبى للذين يطرقون أبواب الغد .. ويرصفون

طريق الخلاص .. طوبى للذين يضيئون الشموع .. ويواصلون المسير ويقتحمون المصير .. فجرهم قادم .. شمسهم ستشرق .. يومهم آت ..

نظر حامل الخريطة الى الأفق عندما تناهى اليه النداء فرأى (صابرة) ترفرف بجناحيها تحف بها هالة من الضياء وقد حطت على رأسها حمامة فى منقارها غصن أخضر ..

- يا حامل الغدارة .. لقد انتهت المسيرة .. ها هو زمنك يموت .. عالمك بزسره يواجه الاحتضار .. نجا طفلنا .. وكذلك الوثيقة وجاء يوم الانسان !

لاحت السفينة تمخر عباب اليم مقدمتها ويخفق مع الريح شراعها .. تداعى حامل الغدارة .. فاحتضن حامل الخريطة الطفل ومضى تجاه السفينة ..!!

قاتل لوجه الله !

خلا الجسر على طول امتداده .. من أقدام العائدين من النجوع والحقول .. كانت عربة حميد الجمسى قد مرقت منذ قليل مشحونة بحمولتها من الأنفار وليس ثمة غير حمار يركض فى تمهل منهوك عندما تقترب عصا راكبه من رقبته .. وآخر فلول الشمس كانت تنساب من بين السياج الجريدى لجدار مدفنه الأقباط الكاثوليك فى مواجهة جنينة الخواجة عازر الجويلى .. وكوخ مندوهة وشبيب الخولى بالقرب من بابها على حافة المصرف الذى يجرى تحت سياجها .. بينما قبعت الصغيرة أبنة مندوهة وشبيب تقضى حاجتها عند جدار المقبرة وراء شجرة الجميز العجوز التى اخترقت حائط المقبرة واستباحت جانبا من الطريق.

كانت الصغيرة تدعك عينيها براحة يدها وهى تراقب سحلية رمادية أطلت برأسها من بين السياج الجريدى أعلى جدار المقبرة . وعندما نقت احدى الضفادع بالقرب منها كانت الطلقة النارية فد دوت في الفضاء .. جرت الضفدعة مذعورة .. واختفى رأس السحلية.. ثم جرت الصغيرة فى اتجاه الكوخ .. الذى برزت مندوهة من داخله يتبعها شبيب زوجها وهو يلوك شيئا ما فى فمه .

كان الحمار يتمرغ على حافة المصرف .. ورفلة بائع الأقمشة المتجول بين أسواق القرى يتخبط فى دمه ، وقد اخترقت الرصاصة جمجمته .. وعلى زئير الطلقة وصرخات مندوهة ونهيق الحمار واستغاثات شبيب .. تجمع الذين كانوا فى أغوار الحقول وخبائث الجسر وطاحونة البربا والذين كانوا يتبركون بضريح الشيخ دياب .. وقالها الجميع .. فعلها رشدان الأطرش .. خمس سنوات منذ أن كون عصابته من عتاة المطاريد .. والقتلة .. بدون أن تتمكن الحكومة من اصطياده واخماد ما اشاعه من رعب فى قلوب الأعيان والعمد وكبار التجار .. كل الحملات على حقول الذرة والقصب ومغارات الجبل الشرقى لم تسفر عن شئ .. بينما لايمر الأسبوع بدون جثة أو حرق غيط أو سرقة محصول .. كل الفخاخ التى نصبت له تحاشاها .. وما يأمر به يطاع وما يفرضه ينفذ .. يقولون بأن تاجر الجمال السودانى الذى نهبت قافلته القادمة من الجنوب الى امبابة وأعادها له رشدان كاملة من مطاريد الجبال .. قد أعطاه حجايا سحريا واقيا يمنع من الأذى ويحميه من الكائنات .. ولو كانت من الجنون الزرق.

كان رشدان الأطرش ابن شيخ خفراء قرية الصوامعة شرقى النهر .. طالبا نجيبا بمعهد أسيوط الدينى على غير رغبته ، اذ كان يتمنى أن يصبح أفنديا مثل خاله المستشار جميل النجعاوى .. ولكن والده أرغمه على دخول الأزهر ليكون شيخا مهيبا مسموع الكلمة مثل عمه الشيخ وهدان شيخ المعهد الأحمدى وعضو هيئة كبار العلماء ذات

النفوذ فى قصر الملك والحاشية .

وعاش رشدان الثلاث سنوات التى قضاها فى أسيوط مشاكسا رغم تفوقه .. يجادل الشيوخ ويتحرش بالأساتذة .. وعندما تطاول بالشتيمة على الشيخ القرنى مدرس الفقه والتوحيد .. قررت ادارة المعهد فصله نهائيا .. ورفض الشيخ العسكرى شيخ المعهد أن يقبل فى شأنه أية وساطة حتى ولو جاءت من الامام الأكبر ذاته !!

وعاد رشدان الى الصوامعة ليجد أن والده قد أقسم بالطلاق ألا يدخل هذا المارق الكافر بيته .

وعرض عليه أخواله ثلاثة أفدنة يزرعها وله ريعها .. ولكن اليد التى تعودت نعومة الكتب وقراءة المنفلوطى والجاحظ والمتنبى .. نبت عن الفأس والطنبور .. لتلعب النرد فى مقاهى البندر وتدمن سرقة أجولة الغلال وأكياس القطن من حيشان والده وأعمامه وأخواله والغرباء أيضا .. عرفته مقاهى سوهاج .. جراند وسافواى .. وسينما البلدية وسيرك الحلو ، وبيت بخيتة الغجرية فى نجع القرد .. وخمارة أمبرتو فى شارع المحطة .. ينفق نهاره فى لعب القمار مع شلة فارس الونينى تاجر القطن .. وعندما خسر كل نقوده ذات ليلة .. داعبه فارس طالبا منه أن يلاعبه على الصديرى الجوخ الذى يرتديه تحت جلبابه الكشميرى .. واعتبرها رشدان أهانة .. صورتها لها الخمر جريمة .. فأغمد مطواه فى جنب فارس .. وسويت المسألة وديا .. ولكنه عندما اعتدى بالضرب على ضابط المباحث فى نجع أبو شجرة

عندما رآه مفتونا بوجاهته وسلطته .. وهو يتهجم على باعة البرسيم والخضروات .. ويجعل أرجل حصانه تبعثر أكوام أرزاقهم فى عرض السويقة .. وفوق هذا تدوس أجسامهم .. عندها استشاط غضبا والقى بالضابط من فوق الحصان .. ولم تتم تسويه الأمر وديا هذه المرة..

وخرج من السجن صاحب عصابة مأواه الكهوف والجبال .. وقد اقسم أن يرى للحكومة نجوم الظهر فى كبد السماء .. فرض على العمد والأعيان الأتاوات واختطف ابن أحد كبار الأطباء الذى أمتنع عن أسعاف مريضة فقيرة فى أحدى القرى ثم أعاده سليما عندما سمع بحالة الجنون التى تلبست أمه وقد عرف كيف يؤدب الذين كابروا فى الاستجابة له . فخروا له صاغرين..

ورغم تدمر الأعيان واقاويل المخبرين عن المصير الأسود الذى ينتظره. فان التعاطف معه كان يجيش فى قلوب الكثيرين .. فهناك شائعات تردد بأن الأوتاوات التى ينالها من الأعيان وكبار التجار .. يوزعها انصاره .. على الفقراء والمحتاجين والمساكين .. والذين يعجزون عن دفع المصاريف لأبنائهم فى المدارس الأميرية وأن كل أرملة فقيرة أو مطلقة محتاجه .. لها فى ذمته مصروف !!

جاء البوكس « فورد» محملا بوكيل النيابة .. ومعاون البوليس وضابط المباحث والعساكر وعوين الحادث على ضوء الكلوب الذى جاءت به مندوهة من طاحونة البريا .. وأمر وكيل النيابة بدفن الجثة..

وكانت المفاجأة أن بضاعة رفلة لم تمس قطعة منها وكذلك تقوده فى الكيس القماش وكل متعلقاته .. من قتل رفلة اذن والسرقة وغير واردة !! والرجل الطيب لاخصوم له .. وكان يعيش فى حالة مع أمه سارة وزوجتة تغيانة .. لم يسمع صوته فى خناقة .. ولم يدخل المركز فى مشكلة .. وعندما كان صبيا يبيع الأقمشة فى محل معلمه الحاج أحمد الخطيب ، كان جميع الزبائن وأصدقاء الحاج يثنون على دمائة خلقه وصبره على مفاصلة الزبائن المشاكسين .. وقدرته على اقناع الزبون بالشراء عندما يتردد .. وعندما انتوى الزواج قرر أن يستقل بأمر نفسه وأن يجرى التجارة لحسابه .. وكان يأخذ من معلمه البضاعة فيرتاد بها أسواق القرى والنجوع . وتفتح له بيوت ربات الخدور .. فيقتصد الربح ويعيد له ثمن الأصل .. ومضت به الأيام على هذا النحو .. لاتعلق باسمه شائبة .. فلماذا يقتل رفلة ولاخصومة له ولاثأر عنده ..؟

وعندما حاول الولد الضائع .. قلدس أبن رحمة بائعة البيض أن يطلق اشاعة تدعى أن المعلم زكى صاحب المعلف هو الذى قتل رفلة لأن امرأته راعوس تعشق رفلة منذ أن كان بياعاً فى محل الحاج أحمد الخطيب المواجه لدارها .. وأنها مازالت تجرى وراءه فى الأسواق .. لما قال قلدس هذا .. جرى بعض الناس خلفه بالمراكيب وحرم بعدها أن يخوض فى هذه السيرة ..

ولم يفك القبض على مندوهة وشبيب غموض الحادث .. فلم يعد

عندهما ما يقولانه .. رغم أن شبيب مدمن الأفيون ، كان يعمل مرشدا للحكومة ذاتها .. وأن هناك اشاعات عن صلة مندوهة برشدان الأطرش وأنها كاتمة أسراره وأحيانا تكون طرفا فى الاتفاقات التى تعقد معه لقتل تاجر أو الأخذ بثأر عائلة أو إتلاف زراعة .. وأنها تصطحب الغوازى وحريم الغجر الى رشدان وعصابته وهى التى تحذره من تحركات الحكومة .. لقد جاءت مندوهة فى مولد الشيخ دياب راقصة فى الشوادر المنصوبة فى ساحة البربا وعشقها رشدان وأغدق عليها مناديل العنب والمانجو .. وكسا معصمها بغوآئش الذهب .. ولم تعد الى سنباط مع الفرقة التى جاءت معها وجاء زواجها من شبيب الخولى مجرد ساتر يحميها من البلطجية ونزوات أولاد الأعيان !!

عندما خرجت جنازة رفلة من درب أشعيا بالسويقة الكبيرة متجهة الى سويقة السمك وميدان السيدة عزيزة حيث مدفنة الاقباط .. فوجئ الناس بسارة أم رفلة .. وقد خرجت من بين النائحات محلولة الشعر .. حاسرة الرأس .. مصبوغة الوجه واليدين بالنيلة الزرقاء .. وهى تصرخ فى جموع المشيعين مؤكدة بأن غطاس أبو حنس هو قاتل رفلة .. ولا أحد سواه .. البعض استبعد هذا ، فهذا الولد العايق المخنث الذى يمشط شعره بالفازلين ويعلق سلسلة فى رقبته .. ويرتدى قفاطين السكروتة .. الهفهافة .. لايجرؤ على قتل « فروجة » .. ظن بعض الذين سمعوا اتهامها لغطاس بأنها تهذى وأن لوثة الفقد قد أودت بعقلها .. ولكن البعض الآخر لم يستبعد هذا .. تذكروا واقعة

قديمة.. افتتن غطاس بتغيانة قبل أن يتزوجها رفلة ورفض والده سمعان الصائغ أن يستجيب الى شفاعات أصدقاء غطاس ليخطب له تغيانة .. كيف وهو من أعيان نصارى المركز وسادتهم يزوج ابنه الوحيد بتغيانة الخادمة وابنة عطا الله الدكيش بائع الترمس والفشار ..

وكان الولد مجنونا بتغيانة يمشى وراءها فى السويقة وعندما ترافق بنات الخواجا قلليني الى الكنيسة .. ويحاول اغراءها بالخواتم والحلقان والخلاخيل التى يسرقها من محل والده .. ولكن تغيانة لاتغيره حتى التفاته .. فقد تكلم عليها رفلة ابن خالتها سارة وقالت لبنات درب الطبال أن مركوب رفلة « أرجل» من ألف رجل من نوع هذا الغطاس دلوعة أمه .. ورآها غطاس ذات صباح وهو يجلس أمام الميزان فى دكان الصاغة .. وكان باب بيت الخواجا قلليني مواربا .. وهى جالسة تدش الفول وقد أطل نهداها الرخاميان من فتحة الثوب وهى تنحنى على الرحاية .. وهما يتماوجان مع حركة يدها وجسمها وهى تلف بالرحاية..

جن جنونه واقتحم عليها خلوتها فى صحن البيت .. دهمها راكعا يحاول احتواء صدرها .. وانطلقت صرخاتها فاطلت أمها حنونة من فوق درابزين الدور الثالث .. فرمته بيد الهون ففر مذعورا .. وكانت فضيحة .. هاجر بعدها غطاس الى السويس عند خاله الذى يعمل فى الكامب الانجليزى .

ونسيت بمرور السنوات حكاية تغيانة وغطاس .. وتزوجت هى من

رفلة ابن خالتها وقال الناس أن رفلة يتسأهلها .. وإن حسده البعض عليها .. فهى خارقة الجمال بيضاء البشرة .. متفجرة الأنوثة .. وكان جمالها يهز الشارع هزا .. وهى ترافق بنات الخواجا قلليني الجميلات .. صبوحة وعايدة ووداد .. وكان البعض من طوال الألسنة يحقولون بأن ابنة حنونة قد انحدرت من نفس الصلب الذى جاءت منه الجميلات الثلاث .. فلا يعقل أن تكون تغيانة الشقراء البضة .. نتاجا لعطاء الله الأحدب بائع الفشار .. وكانت حنونة فى الأيام الخوالي جميلة الجميلات !!

ولم يعمر غطاس فى الكامب طويلا .. طردوه لما ضبطوه يسرق خراطيش السجاير وصناديق الكونياك .. وعاد الى أخميم وعندما مات والده سمعان صفى دكان الصاغة وأصبح ولا هم له إلا الجلوس فوق المقاهى وارتياد اخنان سوهاج .. والسفر الى الاسكندرية كلما قبض ايجار الفدادين .. يلتف حوله كل من فشل فى دراسته .. أو أفلس من أبناء التجار والأعيان .. يشرب البيرة نهارا .. ويعب الخمر ليلا .. ويهذى بأنه لابد أن ينال التى كوت قلبه .. ولم تكف سارة عن دوراتها فى الشوارع والأزقة والكنائس وأمام الجوامع .. وكلما قابلت قسيسا أو رأت شيخا .. أو شاهدت فرحا أو مشت فى جنازة .. صرخت بأعلى صوتها حاسرة الرأس محلولة الشعر .. بأن غطاس هو الذى أو قد الجمر فى قلبها .. وعندما تشرب من دمه ستبرد النار فى أحشائها.

وعندما طلبت منها تغيانة وأمها حنونة .. أن تكف عن اتهام لاسند له والرب وحده هو الذى يعرف قاتل غطاس .. لم تتورع سارة عن مواجهتهما .. بأن قلب المؤمن دليله .. وأن ما تقولانه ربما يكون البداية .. فعين غطاس على تغيانة وجيبه عمران .. بكت تغيانة وأقسمت بالصليب .. أنه لن تكون لرجل بعد رفلة حتى ولو ألقى بذهب العالم تحت قدميها .. وأنها ستربى ابنته اليتيمة ولن تخرج من هذا البيت الا يوم أن يحملها الصندوق الى جوار الغالى !

باعت سارة كردانها الذهبى وحجلها الفضى .. وقيزان النحاس الثقيل وكل ما كان فى حوزتها من خواتم وحلقان كانت تدخرها لغدر الزمان .. وفى الظلام تسللت تطرق كوخ مندوهة .. وعلى ضوء لمبة الجاز التى يتراقص عويلها .. حسرت ملاءتها ووضعت فى كف مندوهة خمسة ريالات فضية .. ولصغيرها فرده وجلباباً صوفيا كانت قد حلق خالته تغيانه لابنتها .. وقبلت يدها لتوصلها الى حيث يكون رشدان الأطرش..

وأمام لوعة الدموع وقبلات الضراعة وبريق الريالات .. تجاوبت معها مندوهة بدون استنكار أو غضب .. طلبت منها أن تأتى بعد انفضاض سوق الأربعاء فى المساء بعدما يحل الظلام .. وأن تكون متخفية فى ملابس الرجال وأن يتم لقاؤهما عند تعريجة الجسر الموصلة لقرية الجلاوية ..

وفى الموعد سارت بها مندوهة بين أدغال القصب .. ثم عصبت لها

بصـرها .. وفى الظلام الدامس صعـدت بهـا الجبل حيث مـأواه .. وجاءها صوته خشنا ودودا .. ماذا تريدين يا أم رفلة ؟

مـدت يدها تحـاول أن تتلمس من خـلال مـصدر الصوت أين تكون قدمه وجثت تقبلها .. أزاح شال الكريشة من فوق كتفه وأسند المدفع بجـواره .. وطبطب على كـتفـهـا .. بينـما تدافـعت كلماتـهـا .. رأس غطاس يا ولدى .. يحميك الرب لشبابك .. طفحت الدم فى بيوت الناس لأربيه بعد يتمه .. وعندا أصبح رجلا لشيخوختى جاء غطاس وقتله لى ..

رد عليها فى جهامة غير قاطعة الرفض .. من تظنيننى يا امرأة .. لست عـزرائيـلا يـزهق أرواح الناس بـلا جـريرة .. أقـتل الظلـمـة .. لا الأبرياء .. ان كان غطاس هو القاتل .. فلك رأسه ..

أخرجت ثمن الكردان والحجل والقيـزان وألقت باللغة الورقية فى يده .. هذا كل مـا أسـتطعتـه يا ولدى ـ ثمانون جنيهـا ـ أما ما تركه رفله .. فهو من حق الأرملة واليتيـمة .. ثم قطعت صليبـا صغيـرا من الذهب كان معلقـا بخيط من الدوبارة فى رقبتهـا وقدمتـه للرجل هى تغمر يده بقبلاتها ودموعهـا .. رفعهـا رشدان من فوق الأرض يقـول لهـا : لمى اشيـاءك يا امرأة .. لا آخذ أموال اليتـامى .. وإذا كـان غطاس هو الفاعل .. أهبك لوجه الله رأسه !!

ذات فجر عندما كان غطاس عائدا من بيت بخيتة الغجرية فى نجع القـرد ، وعندما خـرج من لنش جبرة الذى عبر به النهر الى الشاطئ

الشرقى وكانت عربة حميد الجمسى فى انتظاره لنقله الى أخميم عبر الجسر الزراعى .. وقبل أن يضع قدمه الثانية على المرسى الخشبى .. عاجلته خمس رصاصات .. جندلته قتيلا .. وفى نفس الليلة وجدت جثة فياض الديباتى ملقاة فى قاع مصرف بجوار حقل أذرة عند مدخل قرية الحواويش .. وفهم الناس أن غطاس كان هو الذى أكتراه لقتل رفلة .. وطبخت سارة أرزا بالحليب وزعته على السابلة .. وملأت جنبات أخميم زغاريدها .

وبعد أسبوع من مصرع غطاس وفياض ..وموت الكونستابل ماجد الدماطى متأثرا بجراحه أثناء حملة للحكومة على مغارات الجبل الشرقى .. جاء مأمور جديد أقسم برأس والده الباشا أن يصطاد رشدان الأطرش .. أو يطلق الرصاص على نفسه .. عقد اجتماعا للعمد والأعيان واستدعى حكمدار المديرية فرقة من منقباد وجاست الحملات المستمرة مغارات الجبل وحاصرت مداخله ومنافذه وأحرقت بعض مزارع القصب .. وذات صباح طافت عربة حميد الجسمى البلدة تعلن من أحد الأبواق .. أن رشدان قد وقع فى شر أعماله .. وأن جثته ستطوف شوارع أخميم غدا .. عبرة لمن يعتبر !!

البعض من أبناء الأعيان والعساكر والمخبرين أظهر الشماتة سافرة .. ولكن غالبية الناس تلقت الخبر فى وجوم صامت .. كان بالنسبة لهم أسطورة بطولة .. وتهامس الناس بأن فى الأمر خيانة . كما همس البعض بأن الحكومة ليست هى التى وصلت اليه عندما غادر مشارف

قرية ساقلته وكان معزوما عند صديقه العمدة الذى كان زميلا له فى معهد أسيوط .. وانما هم رجال عصابة فياض قد اغتالوه انتقاما لشيخ منسرهم .

وفى الصباح تجمع الناس فى طرقات المدينة .. حيث حملته عربة خشبية يجرها حمار واهن أجرب .. وكان جسده ممددا فوقها عاريا الا من سروال يستر عورته .. وامعانا في النكاية والتحقير دهنوا وجهه بالجير الأبيض .. وخلف العربة الكسيحة مشى المأمور ومعاون البوليس ومعاوت الادارة وضباط المركز وكثرة من العساكر وهم يشهرون البنادق .. والناس يحملقون فى صمت شاحب مقهور .. وعندما وصل الموكب الى شارع السويقة . تدافعت بين الجموع .. صرخة ملتاعة .. قتلوك يا سبع الرجال .. وفى غمار المفاجأة اقتحمت الموكب حاسرة الرأس محلولة الشعر .. ملطخة الجبين والرسغين بالنيلة الزرقاء .. واتجهت اى الجثة الممددة وقبلت الجبين الملطخ بالجير ثم ننزعت ملاءتها تسدلها على الجثة المكشوفة ..

وعندما امتدت كعوب البنادق نحوها .. التهبت نار التحدى فى عيون الجموع وفهم المأمور ما يمكن حدوثه .. فزوقف العساكر باشارة من يده .. نطرت سارة الى موكب الحكام فى غضب .. ثم ارتدت النظرة الى الأعيان في احتقار .. وابتعدت العربة .. وتلقفتها بالاكبار والدموع أذرع الحزانى من جموع الناس !!

بئـر الاحبـــاش

لم يكن فى الشارع الطويل غيرنا نحن غلمان درب السبكى فقد تلاشى وقع أقدام العم مهران الحلاق وهو يعرج الى حارة المشاط المتفرعة من الشارع وتأتينا سعلاته واهنة من خلف باب بيته .. وكان هو آخر من يغادر الجامع بعد صلاة الفجر والصبح معا .. ومن بعيد لحنا زينب العمشا تسند جردلها تحت قاعدة عمود النور فى ميدان الجامع وتنزل من فوق رأسها دست الفول النابت .. وحفيدتها الصغيرة تضع طاولة الخبز الشمسى المخمر فوق الحصيرة بجور الدست.. ولا يتردد فى صمت البكور غير نباح كلب أو خوار بقرة فى اتجاه البئر وحوض السبيل.

واتجهت مجموعتنا الراكضة اللاهثة التى تلاحقها نحنحات يوسف الجعلوط خفير الدرك صوب الكوخ الطينى الملتصق بالبئر والحوض .. وامتدت أياديناا تقرع باب الكوخ .. ولاصوت من الداخل يأتينا برد يوقف خبطاتنا المجنونة .. وجاءت مريام الحبشية تقود جاموسة القس ابراهيم نحو حوض السبيل .. وعند راتنا نقرع الباب وحقائبنا المدرسية مكومة تحد جدار البئر .. اخذت تتمتم بكلمات تداخلت فيها

لغة قومها بلغتنا .. ولانفهم منها الا أنها شتائم تؤكدها نبرة الغضب في صوتها .. وتكشيرة السخط فوق جبيتها الأسود الذى يعكس لون البرونز متداخلا فى لون الأبنوس..

وعندما أوشك الباب العتيق أن يتداعى تركت مريام مقود الجاموسة وجرت وراءنا بعصاها الجريد .. واصطدمت فى هرولتى بتندة دكان الخواجة راغب بائع زيت القرطم وصاحب المعصرة .. فتكسر بعض البيض النيئ داخل حقيبتى القماشية واختلطت عصارته بالكتب والكراريس .. فتوقفتأخرجه متكسرا وسليما وأنا ألقى به عند عتبة المعصرة .. كنت قد جمعت هذا البيض من وراء ظهر أمى من خص البوص فوق السطوح ومن بوق الفرن وحنية السلم حيث يبيض دجاج أمى فى هذه الأماكن ومواقع غيرها .. لنشويه فى نار الحطب التى يشعلها العجوز فى مدخل كوخه بعد عودته من الجامع ليتدفأ بها فى زمهرير الشتاء .. عندما رأى الصغار أن مريام لم تعترضنى عندما عدت لأغسل بيدى المعاصة بالبيض فى حوض السبيل .. عادوا من جديد يأخذون حقائبهم .. وبعضهم اتجه الى الكوخ ينظر من ثقب بابه ومن تحت عقبه .. ولكن لا أنفاس للحياة تتردد بداخله .. لادفء اليوم ولا وليمة .. كنا نجتمع داخل كوخه .. نشوى البيض ونقمر الخبز من أرغفة القمح وبتاو الذرة .. وكنا نريد أن نعرف منه الحكاية بحذافيرها .. حكايته مع الشيخ نعمان الامام الجديد .. ولكنه خذلنا بالأمس فاختفى .. واليوم كذلك لاصوت له أيضا .. أين يذهب هذا

المقطوع من شجرة ، هل تكون الجنية السمراء صاحبته التى «يخاويها» قد أخذته إلى القاع وأنامته عندها فى الدهليز المتفرع من قبو أسفل البئر تقع المياه تحت خمسة أشبار من طاقته .. وأبدأ لايزيد منسوب الماء عن هذا الحد .. مهما كان فيضان النهر غامرا .. أين ذهب العجوز سألنا مريام الحبشية عنه .. فغمغمت بكلمات مبهمة ساخطة .. لم نفهم منها الا أن بلدتنا هذه كافرة .. أكلت الفتى لحما ورمت العجوز عظما .. ربما كانت الحبشية تشير الى عام « الشراقى» يوم أن تمرد النهر فحبس مياهه ، وغاضت مياه كل الآبار الا بئره وملأ هو القرب والجرار واتجه بها إلى الحقول .. وأدرك أصحاب الأراضى أن البئر يمكن أن تقدم حلا .. وأرتوت عشرات الأفدنة ، ومن بين كل البلدان الواقعة شرقى النيل نجت أخميم من المجاعة الكاملة .. وربما كانت العجوز تعنى الواقعة التى حدثت قبل مولدنا أيضا بزمن طويل .. عندما اعتدى السوهاجية غربى النهر على تجار الماشية من بلدتنا ومنعوهم من دخول سوق الاثنين .. يومها كان رجب سقاء البئر ومؤذن الجامع بطل المعركة التى تولت تأديبهم رغم انحياز الحكومة اليهم .. وما أن قالت مريام كلماتها .. حتى تلاشت لحظة السلام العابرة من نظراتها وساقت الجاموسة صوب بيت القس ابراهيم وتركتنا مريام تلك الناشفة العود .. الطويلة القامة .. الصامتة دائما .. عرفنا من الكبار أنها حبشية جاءت مع قبيلتها من الجنوب لاجئة عندما اجتاح الطليان أرض الحبشة .. وأوى القس ابراهيم بعضهم فى فناء كنيسة السيدة دميانة .. والبعض الآخر اقيمت له الخيام فى قطعة الأرض الخلاء المملوكة للجامع

العمرى ، وتقع وراء محرابه ، ونصب أهل البلدة خياما لبعضهم بجوار كوخ رجب السقاء عند البئر ، وتكفلت البلدة كلها باطعامهم .. رغم أن الناس وقتها كانوا يخبزون الدقيق الذى توزعه الحكومة بالبطاقة بعد أن استولت على محصول القح بالحيازة .. وعندما عاد هؤلاء الى الحبشة بعد انتهاء الحرب وخروج الطليان .. تخلفت عنهم مريام ..

قالوا أن العشرة صعبت عليها وانها احبت زوجة القس إبراهيم .. ولكن هناك من تقول بأن السبب غير هذا .. لقد عشقت رجب المؤذن وصاحب بئر أبو نصير التى سميت بعد ذلك « بئر الأحباش » حيث كانت مجموعاتهم اللاجئة تلتقى عندها بجوار رجب هو يغنى لهم مواويل .. كانوا لايفهمونها ولكنها تشجيهم وتبكيهم وتفجر فيهم الحنين الى وطن الأحباش . عندما كان يؤذن أو يرتل تواشيح رمضان كانت مريام تقف عند البئر متخشبة تنهمر دموعها وفى عينيها لمعان تضفى عليه الدموع ما يكاد يجعله شعاعا .. وقيل أن جنية البئر صاحبته هددته بمسخه قردا أن تزوج من تلك الحبشية الممشوقة القوام.... بل هناك من يؤكد من عجائز القوم ونساء البلدة أن مريام هى الجنية نفسها فى الحقيقة وأنها تنكرت فى صورة آدمية ليكون لها المعشوق فى السر والعلانية ..

عندما رأينا الشيخ فاضل مدرس اللغة العربية يمسك كراسة التحضير المستطيلة الحمراء فى يده اليسرى ، وفى يده اليمنى عصاه

الخيرزان ذات المقبض العاجى انتظمت خطوات المجموعة مؤدبة فى اتجاه المدرسة الخيرية بجوار كنيسة السيدة دميانة .. وفى عيوننا قلق على صاحبنا العجوز .. وفى قلوبنا التوجس .. كنا نحن الصغار نحبه ولانجد فى تصرفاته ما يخفينا منه برغم كل مانسمعه عنه .. فقد كان الكبار ينفرون منه ولكنهم لايبدون له هذا النفور خوفا من سحره .. وتوددا حتى لايربط الشبان منهم ليلة عرسهم . قد كان هذا فنه الذى .. تحذقه الجنيه صاحبته .. وعلى كل عريس من أولاد الأعيان أوغنياء التجار أن يقدم له ليلة دخلته جنيها مجيديا أو فكتوريا ورلا أصبح امرأة مثل عروسه ليقل الكبار ما يقولون فنحن نتدفأ بناره .. ويعطينا بلحا لامثيل لحلاوته .. ولايبعدنا عن شجرة الجميز وتسلقها وقطف ثمارها مثل ما ينهر غيرنا اذا اقتربوا منها .. ثم انه بحكم العشرة لن يربطنا عندما نكبر ونصبح عرسانا .

ونحن نخطو الى فصلنا بعد أن دق الناقوس قال لى مراد زميلى .. لماذا لايكون العجوز قد غاب لأنه ذهب الى الجبل عند بئر العين حيث يقيم المغربى فى خلوته عند مقابر الفراعنية وأنهما يتفقان مع خدام المغربى من الجان على خطة لايذاء الشيخ نعمان ، هذا الامام الجديد الذى عينته الأوقاف ليؤم الصلاة ويخطب الجمعة ويؤدى درس العصر ، رددت على مراد مستبعدا هذا .. فالمغربى قد هجر فى الجبل الشرقى من قبل أن نولد نحن .. ثم ان الشيخ برغم تعاطفنا مع العجوز لم يفعل ما يستحق عليه الأذى .. فقد جذب الناس للصلاة بجمال القائه واقناع مواعظه .. وكان شيئا مختلفا عما يقوله رمضان الذى يخطب

الجمعة من كتب لايفقه معنى ماتقوله .. وأنه خطب ذات مرة داعيا أن ينصر الله السلطان عبد الحميد رغم أن ملك مصر اسمه فاروق وأنه من نسل محمد على الكبير وليس من سلاله آل عثمان السلاطين.

واذا كان قد جلب للجامع ميكروفونات ليسمع الناس خارج المسجد مواعظه . فليس معنى ذلك أنه كفر .. رغم أن صاحبنا العجوز عندما طلب منه الشيخ أن يؤدى شعائر الأذان بسماعة الميكروفون .. اهتاج ورفض واعتبر ذلك اهانة لصوته الجميل الذى يؤذن به منذ نصف قرن .. والآن فى آخر الزمن يريدون منه أن يتكلم فى حديدة .. كان صوته فعلا خارق الجمال والجهارة .. وأبي ذاته قال لى أنه كان يصحو فى الفجر على أذانه وهو فى البر الغربى عندما كان يستأجر جنائن عائلة القرم وأكثر من شاهد كان يؤكد بأن القس إبراهيم كان لايفوته اذان فجر .. فهو يحرص على أن يسمع صوته فى جلال السكون .. بل سمعنا أن أنجيل الراهة الايطالية العجوز التى تشرف على مستوصف كنيسة الكاثوليك بشارع الشيخ زين الدين عرضت عليه أن تعبئ تواشيحه فى اسطوانات .. وتعطيه مقابل ذلك أجرا سخيا ولكنه رفض أن يتكلم من خلال الحديد .. ونفس الشئ قاله للامام الجديد .. أبدأ لن يتكلم من خلال هذا البوق ولو كان السيف فوق رأسه .. لم يقف أحد بجانبه إلا نحن معشر الصغار .. كانت قلوبنا معه . وأحزننا أننا لم نعد نراه منذ الواقعة التى سمعنا بها من أفواه الكبار.

فطن رياض أفندى مدرس اللغة الانجليزية الى سرحانى وهو يشرح لنا مفردات قصة مونفليت المقررة علينا .. واكتفى بأن هز المسطرة الحديدية فى يده ، وفهمت التهديد فوجهت اليه أذنى والى السبورة عينى .. ولكنه عندما أستدار وأعطانا ظهره يكتب على السبورة بالطباشير .. همس لى عليوة الجالس عن يسارى فى التختة المجاورة بقوله . أيكون قد مات داخل الكوخ .. ولكن عطية اعترض على كلام ابن رحمة بائعة اللبن قائلا .. انه عندما نظر من عقب الباب لم يشم رائحة .. وأنه يعرف رائحة الجثث جيدا . وكان محقا فأبوه كان حفار قبورنا الواقعة شرقى المدينة بجوار طاحونة البربا ومقام الشيخ دياب .. وعاد مراد يهمس لى ورياض أفندى منهمك فى استخراج الأفعال المضارعة من سياق القصة .. ولماذا لايكون قد مات فعلا وأن الجنية قد حملت جثته الى دهليز البئر لتدفنها بجوار كنوز الفراعنة المرصودة عليه ، ولم أنبس بكلمة ، وعندما ضرب الجرس أيذانا بانتهاء الحصة لم أخرج مع الأولاد .. انحنى رأسى فوق المكتب يجثم على صدرى هم ثقيل .. كنت أكثر الصغار حبا له والتصاقا به وجلوسا بجواره .. عندما يفرغ من السقاية وإذان المغرب ..فى البداية كانت لدى رغبة جارفة فى أن أعرف سره .. أو أن يجعلنى أقرأ بعض كتبه التى قيل أنه يضعها تحت وسادته المجدولة من الليف والمغطاة بكيس من وبر الجمال .. ولكنه لم يكلمنى أبدا عن السحر ولا عن الجنية أو الكنز المخبوء فى القاع .. بل كثيرا ما كنت أقضى الساعات بجواره بدون أن يبادلنى كلمة واحدة .. وهو يترنم لنفسه بمواويل لا أتبين كلماتها ..

وعندما تزوجت احسان الوديعة جارتنا التى كنت أحبها أكثر من أختى سكينة .. وكثيرا ما نمت بجوارها فى ليالى الصيف فوق سطح بيتها الملتصق بيتنا وهى تحكى لى الحواديت حتى يأخذنى النعاس فى حضنها .

وعندما أخذها حمدان إبن عمها هروسا تنام فى حضنه .. قبلتنى ليلة دخلتها وهى تهمس لى أنها ستلد بنتا جميلة كالقمر وتزوجها لى ، ولم يقنع كلامها حزنى ، وعندما ذهبت الى صاحبى العجوز باكيا أتوسل اليه أن يربط حمدان من أجل خاطرى عنده ربت العجوز بيده فوق ظهرى ورأسى وهو يمسح بكم زغبوطة دموعى ويقول لى أريدك رجلا ، هل تفهم الرجل يربط من داخله ، ولم أفهم فنظرت اليه حائرا ، فقال لى عندما يخاف الرجل يهزم ، وعندما تكبر ستفهم ، ولكنى عدت أتوسل اليه ولحت له عن موضوع البئر والحنية وسحره الذى يربط العرسان الذين لايدفعون الأتاوة ثم أخرجت له ريالا فضيا كانت عمتى حفيظة قد نقطتنى به يوم طهورى .. ظهر الغضب على وجهه وهم بأن يصفعنى ، ولكنه أعاد يده وقال لى لو لم أكن أعزك وأعتبرك ابنى لطردتك واذا عدت لهذا الحديث مرة أخرى فلا ترينى بعد اليوم وجهك . لاتكن مثل الأغبياء .. تذكرت هذا وكل جلساتى معه وحدبه على فقضيت كل الحصص مكتئبا .

وخرجنا بعد العصر من المدرسة ولم أجد عندى رغبة فى الذهاب الى البئر والحوض والجميزة والكوخ ونمت حتى أيقظتنى أمى عند

أذانالمغرب لاشترى الفول المدمس للعشاء من دكان سليم أبو البر فى ميدان الجامع العمرى ، ورافقت بعض الصغار من أبناء الدرب الذين كانوا يمسكون بالصحون والقروش لشراء الفول مثلى ، وفوجئنا أمام الجامع بجمهرة من الناس تشكل حلقة كبيرة كان صاحبنا العجوز داخلها ينتفض من شدة الاهتياج وتهتز مع انتفاضاته الشعيرات البيضاء فى صدره المكشوف من زغبوطه الأسود الذى لم نر له غيره فى الصيف أو فى الشتاء.

وكان عمدتنا العجوز يناقشه ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منه ، كان الجميع يعرفون أنه « ممسوس» نزل النهر لحظة موته فسرق قوته ، وكانت قوته مضرب الأمثال منذ معركة السوهاجية ، وبعد أن رفع جاموسة مهران بعدما انزلق نصفها السفلى فى فتحة البئر بيد واحدة.

عرفنا أنه قد ظهر بعد اختفاء يومين ، وفوجئ الناس به فوق المئذنة يؤذن لصلاة المغرب بعد أن القى ببوق الميكروفون فى وسعاية الميدان . وكاد أن يهشم عنق شعبان خادم المبضاة الذى كلفه الأمام الجديد بالأذان عندما غاب العجوز ، وكشفت لنا المجادلة عن حدث خطير عرفنا أن الامام الجديد قرر أن يهدم السبيل ويردم البئر ويقتلع الشجرة ويضيف المكان لتوسيع رقعة الميضأة ودورة المياه والمراحيض التى أصبحت تضيق بالذين يبتغون الاستنجاء وقضاء الحاجة ويعطلهم ، ذلك عن أداء الصلاة فى مواقيتها ، ومرة أخرى أشهد العجوز البلدة كلها بأنه برئ من دم من يفعل ذلك مهما كانت عزوته حاول العمدة

اقناعه ولكنه رفض عرضه بأن يعطيه مندرة يفرشها فى الحوش القبلى عند المضيفة ، كان من المستحيل أن يوافق العجوز على ردم البئر ، انها عمره ، والبلدة كلها تعرف حكايته معها ، فيها جنيته وكنزه المرصود عليه ، كان وقتها فى السابعة عشرة من عمره ، وكانت أمه النوبيه رضوانة هى التى تقوم على البئر بعد أن هجرها زوجها وانطلق مع الدروايش فى أرض الله تاركاً جنينه فى بطنها .

وكانت البئر غير كل الآبار .. عذب ماؤها كالنهر بغير ملوحة وفئ قيظ الصيف كان يخرج ماؤها زلالا باردا ، ويقولون أنها موروثة هكذا منذ الفراعنة ، وأن بها كنزا لم يستطع الرومان اخراجه لأن الجان حماته كانوا يحبطون كل محاولة لاغتصابه ، وأن هذه البئر تنبع من بحيرة تمتد حتى بئر العين فى بطن الجبل الشرقى حيث يطاهر الأبناء الصغار عندها ، ويغتسلون بمائها فيلتئم جرح الطهور مباشرة .

أيامها عندما كان فى السابعة عشرة من عمره جاء الشيخ المغربى صاحب الرداء الأبيض والعمامة الخضراء يحمل تحت أبطه خرجا يمتلئ بالكتب الصفراء ، وأصناف البخور ، وقال أن بلدتنا تمتلئ بكنوز الفراعين وما خبأه الرومان فى بطون أرضها وهم يهربون من جند ابن العاص ، وأشار الى بعض البيوت وقال هنا توجد الكنوز ، ولكن أصحابها خافوا أن تضم الحكومة بيوتهم الى حيازة الآثار لو تسربت الأخبار عن هذه الكنوز والحكومة فرسها عرجاء ، ولكنها تصطاد الغزلان ، وأقسم المغربى بالقرآن المجيد ، أن بئر أبو نصير بها سرداب

يؤدى الى ساحة مليئة بأكوام الذهب والياقوت ، وأن كنوز البئر لو استخرجت فسينال نصيبه منها القادم من أسوان ، ولو جاء ماشيا ، ولكن الكنوز كما تقول الكتب مرصودة على غلام أسود البشرة مقرون الحاجبين على خده الأيسر شامة ، وليده اليمنى ست أصابع ولاينبت الشعر تحت أبطه ، وعندما رأى المغربى أبن رضوانه .

قال هذا هو الموعود ، وتحكى البلدة أن رضوانه والعمدة والمغربى أبطوه بالحبل وأدلوه فى البئر فجرا بعد أن دله المغربى على الطاقة التى ينفذ منها الى السرداب قبل أن يصل الى الماء بعد أن سقاه ماء الشجاعة المسحور من قارورة فى خرجه ، وأخذ يحرق بخوره ويتلو تعازيمه من كتاب أصفر قديم مغلف بجلد الماعز ، وانفتحت الطاقة بفعل البخور والتعازيم ، ودخل الغلام واجتاز الدهاليز ، وسار طويلا بين أكوام الذهب والمرجان والفضة والياقوت مبهورا بما يراه بدون أن يخرج له القرد المسلسل حارس الكنوز ، وظل يسير ويسير حتى سمع خبطات شواكيش الحدادين فوق رأسه فى شارع القيسارية غرب البلد ، والمغربى يحرق بخوره وقلب رضوانه يتقطع بدون أن يعود غلامها من الأعماق ، وأوشك البخور أن ينفد عندما خرجت لهاالجنية السوداء عارية الجسد محلولة الشعر وأخذته فى حضنها فاستيقظت بكارة رجولته وقالت له أنها استخسرته فى الموت وطلبت منه أن يخرج لأن بخور صاحبه أوشك أن ينفد ، وبعدها سيكون لقمة سائغة لالاف التنانين ووقف مذهولا مسحورا بجمالها ولكنه ، خرج بعدما وعدته بأنها ستكون رفيقته أبد الدهر ، وعندما صعد لم يقل شيئا بدا أخرس

أمام كل الأسئلة وماتت رضوانه وتولى أمر البئر والسبيل ، ورفض كل محاولة بذلها العمدة لتزويجه ، فقد اكتفى بالمرأة السفلية التى علمته السحر وسكبت فى جسده قوة النهر لحظة موته ..

وشاعت الحكاية من أيامها وقالوا أن المغربى طلب منه أن يكرر المحاولة ولكنه رفض ، وعندما يئس منه ترك له كتبه الصفراء لو خطر له أن يستخرج الكنز يوما ، وعليه الا ينسى أنه شريكه وسيأتيه فى لمح البصر لو ذهب عند بئر العين فى الجبل وناداه .. البعض كان يستهول الحكاية ، والبعض كان لايستبعدها أمام تصرفاته الغريبة ، وأكثر من واحدة من حاملات الجرار أقسمت بأنها رأت الجنية السمراء خارقة الجمال وشعرها ينسدل عليها فى ضوء القمر ، وهى تقترب من صاحبها وتعانقه وتغطيه بليل شعرها ، هذه هى الحكاية التى يعرفها الكبير والصغير فى بلدتنا ، فكيف يمكن أن يسمح لهم بردم البئر ، وكل ما يختصه فيها ، ثم أن البئر والجميزة ، والحوض والمكان بأسره يخصنا نحن الصغار أيضا ، هذا ما جعلنى لا أنتظر بقية المناقشة ، جريت وتركت صحن القول بجوار القدرة وزعقت على أطفال درب السبكى وحكيت لهم الواقعة أحرضهم على الوقوف بجانب العجوز فى حربه ، والا نمكن أحدا من ردم البئر واقتلاع الشجرة وتعاهدنا على هذا وأقسمنا بالمصاحف والبخارى ومقامات كل الأولياء فى بلدتنا ..

وفى الصباح ملأنا الحقائب بكل ما جمعناه من الأحجار وانصاف الطوب الأحمر وأرباعه ، وسرق سليم ابن البائع الململوحة كرباج والده

الذى أهداه اليه أحد عساكر الهجانة مقابل ما كان يأخذه من صفائح ملوحته ، وقال سليم أنه سيعطى الكرباج السودانى لصاحبنا العجوز ليقاتل به خصومه ، اتجهنا الى الميدان بطوبنا وأحجارنا ، رأينا العجوز يقف أمام الكوخ ، وقد شمر عن أكمامه وبيده شمروخه العتيد الذى ان سواه قديما من خشب الرمان ، وكانت مريام الحبشية تقف مستنده على جدار الحوض وجاموسة القس ابراهيم تغمس بوزها فى الماء ، وجاء محمد أبو شيخون البناء يتقدم مجموعة من الفعلة يحملون المقاطف والفئوس .. وقبل أن تقترب خطواتهم من البئر انتفض العجوز شاهرا شمروخه ، فر الفعلة فى البداية من قدامه ، ولكن خدم العمدة جاءوا والتفوا وراء ظهره وقيدوا حركته .. صرخت مريام صرخة ملتاعة وأعملت قواطعها فى أكتاف الرجال ، ولكن يوسف الجعلوط خفير الدرك لكمها بكعب البندقية فى بطنها فخرت على الأرض صامتة وزمجر العجوز وانفلت من حصار الأذرع التى تقيده ، بينما فئوس الفعلة تعمل فى البئر والسبيل ، والتقط شمروخه يضرب فى كل اتجاه والرجال يتساقطون من ضرباته وأحجارنا تتساقط عليهم من الشرق والغرب ومن كل مكان ، وعندما رأى العمدة أن العجوز قد جن جنونه وأنه يتجه اليه بشمروخه تراجع يحتمى وراء باب معصرة الخواجة راغب ، ولكنه أمر يوسف الخفير بأن يطلق النار وضرب الخفير عيارا فى الهواء ، ولكن العجوز ازداد هياجه وبرز العمدة من وراء باب المعصرة وأصدر أمره ليوسف أن يضرب فى المليان ، أمرنا العجوز أن نكف عن الضرب بالأحجار وهو ينظر الينا نظرة

منكسرة.. بدا أنه هزم واستسلم ، ثم اتجه الى مريام وقبل جنيها فارتمت فى أحضانه تنتحب ، ربت على ظهرها وشعرها ، وفجأة كالبرق قذف بنفسه داخل البئر وسمعنا لسقوطه دويا كأنه الانفجار الذى لايمكن أن يحدثه هذا الجسد النحيل الضامر ، خيم الصمت والوجوم ، وجاءت البلدة كلها وهبط الذين يجيدون الغوص ، غواصا وراء غواص ، وكل منهم يخرج قائلاً أنه لايجد فى القاع شيئا ، واستدعى العمدة معروف الغواص من قرية الديابات القريبة، وكان أحذق غواص فى مديريتنا وغطس أكثر من مرة ولم يجد شيئا ، وفى المرة الأخيرة خرج علينا يحمل الزعبوط الأسود الذى كان يرتديه العجوز .. كان خاليا من جسد صاحبه ، وانقضت مريام واختطفت الثوب وجرت به محلولة الشعر ، ولم يجرؤ أحد أن يلاحقها ، ولم نر مريام بعد اليوم فى بلدتنا ، وظلت البئر من يومها مهجورة ، لا يستعملها أحد . تغير طعم مائها وأصبح كريها ، وكانت البهائم تجفل عند اقترابها من الحوض رافضة أن تدنو منه مهما أوجعتها الضربات ، ولكن عرافة من نساء الغجر جاءت بلدتنا وأطلقت نبوءة تدعى بأن صاحب البئر الأسمر سيعود ذات يوم ليعمر الكوخ ويخصب البئر ويسترد ماريام ويستخرج لفقراء البلدة كنزهم المرصود.

بلاخطيئة

كانت المدينة تتحدث شامتة عن مصرع « حسن الدرنكى» عندما عدت إليها رغم مرور شهر على مصرعه . ولا غرو فقد جعل المدينة وضواحيها مسرحاً لجرائم بشعة لم يكن لها بها سابق عهد . . لذلك كان الناس لايذكرونه إلا بوابل من اللعنات . . حتى إمام المسجد أبى أن يصلى على جثمانه ، زاعماً أنه إنسان حاقت به لعنة السماء فلايجب أن تدركه رحمة البشر .

لذلك اعترتنى الدهشة عندما رجتنى أمى فى إلحاح أن أضع باقة من الازهار فوق قبره . . !

ورغم أنى تعودت أن ألبىّ رغباتها بدون إيضاح إلا أنى هذه المرة خرقت القاعدة فسألتها ما يبرأ هذا المسلك الشاذ ، فأجابت فى إقتضاب : إنه طالما أسدى إليها من خدمات ليس من حقى أن أعرفها . وعلى ذلك أخذت طريقى إلى مدينة الموتى . .

وشعرت برهبة مبهمة وأنا أجوس خلال مسالكها المتربة الموحشة . . واستغرقت أفكر . . إن هذا المجرم له العذر فى أن يكون مسلكه نحو الناس متسماً بالجفوة والإرهاب . . فالبشر الذين يضنون بالغفران حتى لميت أصبح فى ذمة السماء سيرغمون الإنسان على أن يكون شيطانا . .

وأزحت عن فكرى هذه الخـواطر وانسـاق تفكيـرى إلى خـواطر أخرى.. ما بال مدينة الموتى قد اتسعت كثيراً وبدرجة غريبة عن آخر مرة زرتها فيـها منذ عـشر سنوات عندما أهلنا التـراب على جثـمان أبى.. ! فالأرض الجرداء المتـرامية التى كانت تحف بالمقابر قد زحف الموتى إليها .. وليس من المستبعد إن ظل الحال هكذا أن ينافسنا الموتى فى أرضنا تلك التى ضاقت بالاحياء .. ويرق فى ذهنى خاطر .. لماذا لايهتم علماء الاقتصاد بهذه الظاهرة ..؟

وغمرنى طوفان من الأفكار لا أكاد أتخلص من فكرة حتى تدهمنى غيـرها .. ثم انسـاق فكرى إلى الموت ذاته .. ذلك المارد الجبـار الذى أختطف مني أغلب الذين أحببتهم فى هذه الدنيا إنى أمقت الموت بل أرتعد فرقاً كلما لاح لى شبحه الرهيب واستغربت كيف يكون عزرائيل ملاكاً وتسول له نفسه حصد الأرواح بمنجله المنهوم الشره المسعور .. لقد حدثتنى جدتى عن الملائكة والفكرة الراسبة فى ذهنى أنها مخلوقات أثيرية مرهفة حنونة هى رمز الرحمة ..! فلماذا يشذ عزائيل ويحمل فى نفسه كل هذه الطاقة الهائلة من الكراهية العارمة نحو البشر ..؟ إذن لست متحاملاً فى كراهيتى له مادام هو يضمر الشر لجنسى ويعمل على إبادته .. ناهيك بأنه يتربصّ بى وسيد ههنى ذات يوم وألمت بى قشعريرة أنتفض لها كيانى .. أجل من يدرى ربما كان الآن فى طريقه إلى ..!

ومررت فى مسيرى : بالعم جمعة حارس المقابر وشعرت بالارتياح

لوجود أحياء بجانبى .. كان منهمكاً فى عمله المألوف الرتيب يوزع المياه على أشجار المقبرة .. وحيانى بإيماءة من رأسه .. فهكذا عهدناه دائما صموتاً يندر أن يتكلم . ولعل مرد ذلك إلى طول عهده بالمقابر الخرساء كالعدم .. ووثبت نحوى طفلته الصغيرة ونزعت من الباقة التى بيدى زهرة بيضاء وخالستنى النظر لترى وقع ذلك فى نفسى .. ولما تر ما يدل على الامتعاض قالت : « لايضير ميتك أن أنتزع واحدة منها » .. وابتسمت لها ..

ـ عم جمعة .. فى أى ناحية يقوم مثوى حسن الدرنكى ؟

ـ حسن الدرنكى ..!

رددها الرجل وقد بانت الدهشة على وجهه المتغضن الذى ترك الزمن فيه طابعه .. وظل يحملق فى وكأنى « يمليخا » الراعى هب من كهفه . كانت نظراته المتسائلة تطالب بإيضاح ..

ـ إنها مجرد خدمة كلفتنى بها صديقة له . تختلف فكرتها عنه عن رأى الآخرين فيه .

ـ وهذه الورود إبتاعتها خصيصاً له ..؟ أجل

ـ نحن لاشانا لنا بعواطف الآخرين ثم أنها تزعم أنه أسدى إليها خدمات !

وقادنى الكهل خلال المسالك المتعرجة حتى وصلنا إلى بقعة جرداء تتناثر فيها القبور الضئيلة . وأشار إلى قبر تجلس بجواره إمراة ، واستدار عائدا .. وتقدمت بضع خطوات ثم تسمرت فى مكانى لا أريم .. فقد كانت القابعة « نجوى » حسناء المدينة وغانيتها . تلك

الساحرة التى يلهث خلفها كل فتيان المدينة ، ولكنها لاتمنح لياليها إلا للوجهاء من ثراة المدينة الذين بوسعهم أن يجذلوا لهاالعطاء..

لقد هبطت نجوى ذات يوم من مكان مجهول إلي مدينتنا فى مناسبة مولد الشيخ كمال الدين فقيرة معدمة لاتملك سوى جسد خصب ريان يزخر بأنوثة مسبية .. وجمال من نوع أخاذ لايمكن أن يفلتك من قبضته بمجرد أن تراه .؟

وعرفت كيف تستغل أنوثتها ـ التى أضفت عليها الطبيعة الكثير ـ فى نصب حبائلها للإيقاع بثراة المدينة . وطالما اشتهيت نجوى ولبثت الليالى الطوال أرقاً أهفو لقبلة من ثغرها الارجوانى المكتنز كنت على إستعداد لأن أبذل نصف عمرى ـ أنا المراهق الذى يمضه الحرمان ـ مقابل ليلة واحدة من لياليها المترعةبالنشوة .. ولكنى لا أملك الثمن ثمن ليلة واحدة من لياليها .. وكم طالعت فى نظراتى الوالهة وميض الاشتهاء المكبوت المعتلج .. ولكنها لم تستجب أبدا لابتهالى الضارع الصامت ..

كانت تحدجنى بنظرة ساخرة ، ثم تحكم حبك ملاءتها حتى تسفر عن تقاطيع جسدها المتموج ،، وتخطر متهادية فى دلال .. رخو محرض .. متبذل . يلهج بالنداء .

وهاقد واتت الفرصة لامتلاكها وإخضاع عنان جسدها لى .. إنها الآن لن تستطيع أن تقاوم .. وإن فعلت فى النهاية ستخور .. وإحسست بالرغبة الكظيمة تلفح كيانى .. ولبثت واقفاً أفكر فى طريقة إمتلاكها .. كانت هذه الفكرة المجنونة تستحوذ على .. فلم آبه

بعظة الموت ولارهبة القبور .. ورفرف فى الجو عصفور مغرد فأخذت أتأمله وهو يحلق فى الجو جذلا ثم هبط على أصيص غرس فيه نبات «الصبار» وعنت لى فكرة ، والانسان ينزع أحيانا نحو تفاهات مهما كان شأن الفكرة المشغول بها ، عن لى أن أمسك بالطائر لأهديه لصغيرة الحارس حتى أسعد بمرأى الفرحة تتضوع فوق محياها البرئ . واستدرت لأتسلل وأقتنص الطائر من خلفه .. ويبدو أنه فطن لمحاولتى إذ سرعان ما فرد جناحيه وحط على غصن شجرة جميز ضخمة وطفق يرمقنى فى إحتقار.

وتحول إهتمامى إلى الاخرى .. لماذا جاءت هنا ؟ .. ولماذا تقبع بجوار قبر المرحون بالذات .. ؟؟ والآن هل انقض عليها ، وأدع فمى يعب من عبير ثغرها ؟ إن المفاجأة وحدها هى الكفيلة باخضاعها . .ولكنى أكره الاغتصاب ، وخصوصا فى المرأة . وقد عشت حيتى لا أستمرى شيئاً نلته فسراً .. يجب أن تكون الرغبة مزدوجة وتشعر نحوى نحوى بنفس شعورى نحوها فالإمتلاك شئ والبذل مع التفاهم شئ آخر .. ولكنها عنيدة وعناء لاتجدى معها أساليب الغزل .. إنها إمرأة مجربة . لافتاة مراهقة تستميلها كلمات مطرية لبقة .. على أى حال يجب أن أستعمل اللباقة .. آه إنها الفارق بين إنسان الغاب وإنسان الحضارة .. فالأول كان يحقق رغبته بالقوة الجثمانية أما الانسان العصرى فقد حبته التجربة الزمنية بسلاح من الاساليب المهذبة وإن كانت الغاية لاتختلف . كلاهما حيوان سادر فى حيوانيته .. عرف الاخير كيف يغلف غرائزه بنسيج ناعم حاكه معزل التطور .

وفى خطوات رشيقة متناسقة سرت نحوها .. وحالما رأتنى ندت منها صيحة مكتومة لاتنم عن الخوف وإنما تفضح الدهشة .. كانت بقايا الدموع تتدحرج على خدها ..! ودهمتنى أسئلة كثيرة .. لماذا تبكى فوق قبر إنسان شيع جثمانه بلعنات الضحايا .. وأى صلة تربطها به .. ؟؟ ثم أليس عجيبا أن تسح الدموع غانية رسالتها أن ترقص فوق أطلال البيوت التى تهدمها ..؟!

ونحيت الهجوم جانبا .. ثم وضعت باقة الازهار فى «قصرية الصبار» وافترشت الارض قبالتها ..

كانت هناك عدة أسئلة تقفز من عينى كما تطل من عينيها .. قالت :

- أكنت صديقه ؟ وأجبت :

- ألم أره قط .

- ألهذا الحد أنت رحيم .. ؟

- لايمكن أن أزعم هذا .. فقط خدمة كلفت بها .

- أيوجد من يذكره .. ؟!

- من جهتى كنت العنه وأنا فى طريقى إليه ...!

- تبالكم .. لقد جعلتم منه مجرما ..!

- نحن ..؟!

- أجل كلكم معشر البشر . إنكم وحوش .. ذئاب أتسمعنى ؟ أنتم

وحوش فى صورة راقية ..

ـ إسمعى .. ليس من حقك أنت بالذات أن تتفوهى بكلام مثل هذا .. أنت يا سفيرة الشيطان يا بائعة .. وقاطعتنى :« يا بائعة الجسد .. أليس هذا ماكنت تريد قوله ؟»

ونظرت إلى من خلف أهدابها فقلت :

ـ وهل تجنيت ؟

ـ أو تحتقرنى من أجل ذلك ..؟

ـ شئ طبيعى

ـ إذن لماذا تتهافتون على تهافت الكلاب الضالة على جيفة نتنة ..؟

أجب إن بريق الرغبة فى عينيك لم يخب بعد .. تكلم يا من ليست فى حياتك خطيئة ..!

ـ ما أتيت إلى هنا لأسمع محاضرة .

فقط أسألك .. أكنت عشيقته ..؟

ـ وماذا يعنيك

ـ فى موقف مثل هذا لايستطيع الانسان أن يكتم فضوله

ـ كنت خطيبته .. أيشبع ذلك فضولك ؟

ـ خطيبته ..!

ـ أيدهشك ذلك ..؟

ـ حتما ، فأى إنسان مهما وأد مشاعره البشرية ومهما إنحدر إلي

هوة الجريمة .. لايمكن أن ينظر إليك إلا زمن زاوية معينة .

ـ ولكنه لم يكن من طرازكم ، ومن أجل هذا أحببته . إنه الانسان الوحيد الذى وهبته قلبى ولم ينتهك جسدى . هو السفاك ربيب الجريمة .

ـ تزعمين أنه طراز أسمى من طرازنا ؟

ـ على الأقل هذا رأيى أنا فيه عن تجربة .. لم ينظر إلى أبدا كأمة تمنح المتعة .. عاملنى كإنسانة لها قلب وروح .

هل تصدق ؟ كان يبيت عندى كثيرا وبجوارى ، لا يفصله عنى إلا إختلاف تفكيره عن تفكيرهم .. لم يطالبنى بما منحته للجميع .. كلهم أهدروا إنسانيتى وابتذلوها ، بل إن المجتمع ذاته ـ بطريق غير مباشر ـ زجنى إلى هذا المصير ، ومع ذلك يلعننى .. ! كم كنت أتوق إلى كلمة حب وهمسة حنان ليس فيها الرغبة .. ثم عرفته .. كان يرثى لى ويشفق على لأن مصيرنا متشابه ، ورأى الناس فينا متماثل . كلانا طريد يطالب المجتمع بثأره ، فليس من الغريب أن ينجذب كلانا نحو الآخر .

ـ وهل أعلن لك أنه يريدك .. أعنى زوجة .. ؟

ـ أجل فقد سأم هو حياة الجريمة وتبخر حقده نحو الناس .. الناس الذين دفعوه بقسوتهم وتزمتهم ومعاييرهم الجامدة وضّنهم بالغفران له عندما سقط أول مرة .. تاق لأن ينهى صراعه معهم ويعود إلى حظيرة المجتمع فرداً تائباً ناصعاً وباركت عزمه .. إننا مهما . إنحدرنا إنسانيون . والانسان متأصلة فيه شيم الخير كما هى متأصله فيه نوازع

الشر .. صدقنى رغم شروره .. كان شهماً ذا مرءوة .. كان يفرض الاتاوة على الاثرياء وينهب ويسرق ليمد يد العون إلى أسر معدمه ، بل دعنى أميط لك اللثام عن سر ربما يجرح شعورك .. كانت أمك ضمن من يعاونهم لتنفق على تعليمك !!

وهنا فهمت سر طاقة الازهار !!

ـ أو لم يكن سفاكاً .. وأنت أم تكونى جائعة ظامئة تعتصر الرحيق وتنفث السم ..؟؟

ـ كانت مهمة بغيضة إلى نفس كلانا ..!!

ـ ولماذا يرتكب الانسان ما يبغض ؟

ـ ليتقاضى من المجتمع دينه .. فعندما يبحث الانسانا .. عن حياة متواضعة شريفة مكفولة ويحول المجتمع بينه وبين ذلك ليس من الغريب أن يكون معول هدم يسخره الشيطان .

ـ إنه عرض عليك الزواج وقبلت .. فماذا عاقكما ...؟

ـ فى نفس الليلة التى أزمعناها أن تكون ليلة حبنا .. ليلة عرسنا . ليلة توبتنا .. لقى حتفه برصاص البوليس ..

وانهمرت العبرات من عينيها .. وسرح فكرى بعيداً إلى افاق تغاير أفاق تفكيرى الأولى .. تلاشت رغبتى فيها وأعقبها شعور مبهم من الحنان .. إنهارت فكرتى عنها وحل محلها يقين غامض بأنها مظلومة وأنها ضحية . وأنحنيت عليها لا لأهاجمها وأعصر عودها كما كنت أريد أن أفعل .. وإنما لأكفكف دموعها .

- نجوى .. أنا أريدك .. !

- كما يريدني الآخرون .. أي شئ في يجذبكم معشر الاطهار أقران الملائكة ؟

- لا .. بل كما أرادك حسن .. !

وفغرت فاها دهشة ثم نظرت إلى عيني فرأت فيهما مضاء العزم

- نجوى كنت من قبل أذوب لهفة عليك والآن لم يعد فيك ما يجذبني غير روحك .. وأن أردك إلى الحظيرة

- إيغفر البشر خطايا البشر ..؟

- إن الله يغفرها .. فأحرى بهم أن يقتدوا بخالقهم ..

وماذا يقول الناس عنك ..؟

- من كان فيهم بلا خطيئة فليرجمنا وأمسكت بمرفقها فنهضت معي وفي نظراتها المصوبة نحو السماء صلاة صامته .. وعدنا إلى المدينة ، ومررنا في طريقنا بجموع حاشدة .. كان البعض ينظر إلينا ساخطاً لاعناً .. والبعض ينظر إلينا حاسداً .. وجلّ النظرات يطل منها الاحتقار .

وأمام جميع الناس طرقت باب المأذون !

أطفــال الله

في وسـعـاية الجـامع العـمـرى .. حـيث تجـمع الناس يسلمـون على بعـضـهم بعـد صـلاة الجـمـعـة .. وقف بجـوار والده مـزهوا بقـفطانه الحـريرى الجـديد .. وطاقـيتـه الحـجـازية المطرزة بالنقـوش الصـفـراء اللامعة.. كانت ذراع الرجل المهيب فى زعبوطه الأسود تسند كتف الصغيـر الى جانبـه الأيسر تحت أبطه .. بينما ذراعه اليمـنى تمتد فى حركة دائنة لمصافحة المصلين الذين يفدون عليه مصافحين ومسلمين .. وكلمة « حرما » تتدافع من كل الأفواه .. واقبل القس ابراهيم راجعا من السويقة الكبيرة وهو يحمل بطيخة بين يديه .. وما أن جاء مسلما وقد ألقف البطيخة يده اليسرى وحدها .. حتى تناولها الحاج مهران عنه وحملها لابنه الصغير القابع تحت ابطه .. آمرا اياه أن يوصلها الى بيت الأب ابراهيم .. وحـاول الرجل أن يعـتـرض اشـفـاقـا على الولد النحيـل .. فامتنع الولد وابتعد عن متناول يده .. بينما الأب يخاطب جاره القس قائلا : لاتحمل هما .. فهو يجرى أقوى من حصان .. ولم يعد طفلا .. فقد تجاوز الثامنة من عمره .. ومنذ يومين أتم ختم القرآن الكريم وسمعه للشيخ الجبالى كالماء الجارى .. وهو الآن يستعد لحفظ بردة الامام البوصيرى .. ما ان قالها الأب حتى دنا الولد من جديد..

شـاعـرا بالزهو .. وأدخل القس ابراهيم يده فى جـيب ردائه السـفلى تحت « الفـراجـبـة» ذات الأكـمـام الواسـعـة .. وأخـرج مـجـمـوعـة من الريالات الفـضـيـة الفـاروفـيـة والفـؤادية ووضـعـهـا فى الجـيب الأعلى لقفطان الصغير .. مكافأة لاتمام حفظه لكتاب الله فى هذه السن المبكرة وهو يقـول لوالده .. بارك الله فـيه وفى شـقـيـقـة .. ومـسح رأس الصـغـيـر واعـدا اياه بأن الجبـة والعـمـامـة ستكونـان هدية منه .. عندمـا يلتـحق بالأزهر الشريف باذن الله .

وقـال الـشـيـخ للولد قـبـل أن يمضى الأب ابراهيم لك الخـيـار فى أن تعـود إلى البـيـت أو لا تعود .. ولكن أخـبـر الحـاجـة أننى سأتغـذى مع الأنفـار فى غيظ المنشـر ، وإذا سأل عنى سـائل .. فعودتى ستكون بـعد الغـروب .. كـان الأب يعـرف سـره .. وأنه غـيـر راغب الـيـوم فى مصاحبته .. ليتسلق الأشجار .. ويصطاد العصافير .. فقرص أذنه فى رفق وانصرف الى حاله مع بعض الرجال ..

سبق الصغـيـر خطوات الأب ابراهيم متعجلا .. حيث كـان الأخـير يتوقف ليصافح الناس او يتبادل الأحـاديث مع بعضـهـم وما أن ولج من البـاب متخطيـا الديوان المفـروشـة كنبـاته بالأكلمـة الصـوفـيـة .. حتى أصبح فى صـحـن الدار .. حيث الفـرن و « الكوانين» وصـوامع الـدقـيـق وبلاليص الجبن وصـفـائح الخزين .. أسند الـبـطـيخـة الى قـاعدة زير الميـاه بغـيـر أن يهش فـروجـة أخـذت تنفر فى قـشـرتهـا .. وأجـال بصـره فى المكان .. كانت أمه أمام « ماجور » العجين تسـاعـد زوجـة القس ابراهيم فى خـبـز قـرابين يوم الأحـد القـادم من دقيق القـمـح المـمـزوج بالشـعـيـر

والذى تتناوله منها « تغيانة» العجوز خادمة البيت .. وزوجة القس منهمة فى اشعال الفرن وتأجيجها بالقام « بوقها» « حفنات» « قصل» الفول وأعواد حطب القطن .. أبلغ الصغير أمه بما قاله أبوه .. ورفع بصره إلى أعلى فلم ير للصغيرة أثرا .. ولاسمع لها حسا .. وادركت تغيانة العجوز ما يجول بخاطره وأحبت أن تريح باله فقالت : «صباحة» ليست فوق .. هناك فى الكنيسة تساعد شفيق الشماس والعريف أبادير فى تنظيف المذبح والأيقونات ..

قبل أن تفرغ من كلماتها كان قد أخذ ذيل قفطانه فى أسنانه وجرى .. قهقهت تغيانة وابتسمت الأم تجاوب ابتسامة أم برسوم زوجة القس بكل ما باحت به .. كان الجميع يعرفون ما يربط بين الصغيرين المتلاصقين من وشائج الألفة .. كأنهما توأمان .. منذ أن جاءت « صباحة » فى العام الأسبق .. وتآلفا بسرعة ومالت اليه أكثر من ميلها الى أى واحد أو واحدة من أقربائها وأبناء الجيران .. يقرآن معا القصص المصورة ويلعبان معا .. وتكون ضمن فريقه فى أية لعبة يمارسها أطفال الحارة .. وهى بجواره ، عندما يقرأ فى المصحف أو تردد هى ما تطالعه فى العهد الجديد .. وهما معا فى شارع السويقة وفى شارع السيدة دميانة .. أو فى شارع السيدة عزيزة .. يحملان الخس والجزر .. ويتبادلان اللب والترمس والفول السودانى.. وكل واحد منهما يستبقى للآخر جانبا من أى شئ نادر يدخل بيوتها .. والكل يعرف أنه ابن الشيخ مهران كبير عائلة لها مكانتها الدينية العريقة .. وينتمى اليها عدد كبير من شيوخ الأزهر وفقهاء الشرع .. ولا أحد

يرى فى ذلك غضاضة .. فالبيوت متجاورة .. هذا على واجهته الهلال .. وهذا على واجهته الصليب .. ودكان المسيحى بجوار دكان المسملم .. وغيطه يلاصق غيطه . وعياله مع عياله .. والنساء أمهات الجميع .. ومأذن المساجد تكاد تعانق نواقيس الكنائس .. ونصارى البلدة يقبلون أبادى الشيوخ والأئمة .. ومسلموها ينادون بقلب « أبونا» كل قساوستها ! !

عندما توقف عند مدخل كنيسة السيدة دميانة محاولا أن يسترد أنفاسه بعد جرى لاهث .. كانت « راشيل» ابنة تغيانة قد لحقت به تناديه .. وأعطته لفة بها عدة أرغفة وبعض جبن الضأن ومجموعة من البيض المشوى فوق بلاطة الفرن « خد تغذى مع صبوحة .. ولا تنسيا شفيق الشماس وأبادير العريف » .. هكذا قالت خالتك أم برسوم ! !

وجدها فى الداخل تمسك بقطعة قطيفة سوداء .. وقد فرغت من مسح التراب عن كل الأيقونات .. والعريف أبادير والشماس ينظفان الأرائك والحيطان .. أجتاحت هالة الفرح محياها عندما رأته .. وألقت بقطعة القطيفة وهرعت اليه .. وعندما رأت اللفة فى يده .. قطنت الى ما فيها ففضتها وأخذت نصيبهما وتركت للشماس والعريف بقية محتوياتها .. وسحبت يد أحمد فى اتجاه البئر وشجرة الجميز القريبة منها .. هناك مكانهما المحبب تحت جذع .. محفور عليه اسمها واسمه .. فوق الأول صليب وفوق الثانى هلال .. قبل أن يقضم لقمة واحدة .. لمح ومضة الضوء الحزين فى عينيها وهى تنظر نحوه .. خطر له أنها تذكرت من جديد أمها كعادتها في كل مناسبة .. والعيد

بعد يومين .. أى ثمن هو على استعداد لأن يدفعه ليطفئ الأسى فى نظراتها .. وليرى شعاع الفرح الذى يتألق فى عينيها كلما بدت مرحة ..

هذه هى الصغيرة ذات وجه الملائكة بضفيرتها السوداء المجدولة فوق ظهرها غدت كل دنياه منذ جاءت من مدينتها البعيدة بعدما اختطف السرطان أمها زهرة شابة بدون أن تنجب غيرها من قريبها يوسف الجرو تاجر البصل بالقبارى .. الذى أهمل تجارته بعد موت زوجته .. وأدمن الخمر ولعب القمار فى شارع فرنسا .. واشفقت جارتهم القبرصية على البنت اليتيمة من الضياع .. فى بيت لا أم فيه فكتبت الى خالها تناشده أن ينقذ الصغيرة من خطر ما ينتظرها .. وكثيرا ما حدثته « صبوحة» عن الاسكندرية والابراهيمية وباكوس .. والأزاريطة .. ومدينة الملاهى فى مسرح كوتة .. والبحر والنوات .. والترام والخواجات وبابا نويل .. وأصدقائها أولاد جيرانهم الطلاينة .. لعلها تذكرت أمها .. منذ يومين كانا يجلسان فوق سطح بيتها فحدقت فى القمر تقول له : أرى فيه وجه ماما .. أشار الى أمه والى زوجة خالها وهما تثرثران عن قرب منهما وتحكيان الحواديت لبنات الجيران .. وقال لها : لك أكثر من أم هنا يا صبوحة ولكن كلماته لم تجفف الدموع التى ترقرقت فى عيونها ..

قشرت له بيضة ناولتها له فوجد السؤال ينطلق رغما عنه .. مالك صبوحة !

باغتته بالخبر .. سمعت خالها الأب ابراهيم يطلب من عطية ابن

أخته الثانية أن يسافر الى أسيوط ليسحب استمارة ليلحق الصغيرة بكلية الأمريكان هناك فى القسم الداخلى .. ولو كان الود ودها . لما رضيت .. ولكنها لاتستطيع أن تعارض ارادة خالها .. ولهذا فهى منقبضة .. بعد أن تنتهى اجازة الصيف .. ستفارق أحبابها ولن تراهم الا فى الاجازة بعد ثمانية شهور كاملة .. وستكون وحيدة بين راهبات لاتعرفهن .. وأغلبهن من بلاد أجنبية ..

ركن البيضة فوق المنديل الكبير .. وأحس بشئ ما يعصر قلبه ولما رأت سحب الأسى تكتسح وجهه ، وكل كيانه قالت ستكون معى دائما هناك يا أحمد .. لو كان لى أخ شقيق .. ما كان سيكون أغلى عندى منك ..

لم يجد الكلمات كان شاردا تائها .. أسيوط .. سنوات طويلة ستمضى قبل أن يكون له حق الالتحاق بمعهد فؤاد الأول الدينى هناك.. رغم أنه الآن يحفظ القران كله .. ولكنهم لايقبلون مجاورا فى الثامنة من عمره .. وقد نذرته أمه للأزهر .. أسوة بخاله رئيس المحكمة الشرعية .. خمس سنوات قبل أن يكون هناك .. فى بلد هى فيه ..

رد يدها عندما ناولته كسرة الخبز الطرية .. فهزت رأسه متصنعه اللامبالاة والمرح .. تخاطبه : افرد وجهك يا أحمد .. لن أموت .. سأعود فى الأجازة .. ونعوض ما فاتنا .. نجرى فى الغيطان .. ونقرأ القصص ونلعب الاستغماية .. ونتخانق مع أولاد المعلم جبرة

المشاكسين..

كان مازال غارقا فى سهومه .. يتذكر ساعة أن قالت أمه لزوجة خالها وهى ترنو بنظراتها للطفلين الوديعين .. كان منى عينى أنى أناسبك يا أم برسوم .. وردت عليها المرأة الطيبة .. ما يربط بيننا من محبة أكثر من أية قرابة يا أم محمود .. برسوم ومحمود أخوان وأحمد وصباحة أكثر من شقيقين والحاج مهران حبيب أبونا ابراهيم ..وأنا وأنت رأسان فى طاقية واحدة .. ولم ترد الأم بغير أن قالت : أدام الله المحبة وحفظها لنا نعمة .. ولكن من عين كل منهما أطلت أحاسيس أسى مخبوء هو ابن المسجد .. وهى ابنة الكنيسة .. ويعرفان أنه المستحيل ..!!

دمك تقيل اليوم يا أحمد .. أنا أتكلم .. وأنت غائب لاتجاوبنى !!

كان يعرف .. وهى أيضا تعرف .. أنها أيامها الآن .. ولكن الغد ليس لهما .. سيصبح هو رجلا .. وتكتمل هى أنثى ويأتى من يأخذها وربما يذهب بها بعيدا فى بلدة نائية .. كما جاء أبوها يوسف الجرو وأخذ أمها عروسا الى الاسكندرية .. وقد يموت هو أو تموت هى بدون أن يراها وتراه .. انه يتمنى أن يموت الآن وهى آخر وجه يراه وآخر صوت يسمعه .. قال لها ذات مرة وهو يقرأ فى المصحف بعض الآيات التى تعد المتقين بجنة الرضوان .. كنت أتمنى أن تكونى معى فى الجنة يا صبوحة تخدمنا الحور العين .. ولم يقل لها أن الشيخ الجبالى أخبره بأن الجنة لايدخلها الا من أسلم ونطق بالشهادتين .. وردت عليه بأنها تمنت أن يكون معها فى الملكوت ولم تقل له أيضا بأن العريف أبادير

اخبرها بأن الملكوت لن يكون فيه الا من تعمد باسم المسيح ووشم الصليب فى قلبه قبل كفه..

أحس بأنها تفكر الآن فى نفس ما يفكر فيه .. حاول أن يبتسم وهو يتناول الكسرة منها بعد أن قدمتها له مرة أخرى .. وقال لها أنه قرأ فى رواية الجيب التى جلبها أخوه الأكبر محمود عبارة تقول : أن الأرواح التى ألف الله بينهاَ لابد أن تتلاقى .. مهما حاصرها المستحيل .. نظرت اليه .. وفهم النظرة .. عرف .. أنهما لايواجهان مجرد المستحيل وحده .. حاول أن يمضغ اللقمة المحشورة فى حلقه وهو ينظر الى السماء فوقه .. ونظرت هى أيضا الى السماء مثله .. كلاهما كان يتمنى لو استطاع أن يسأل الله نفسه .. أن يكون معا .. فى أرضه .. وأيضا فى سمائه .. ورغم الدموع فى عيونهما ابتسما معا .. وكل منهما قد وصله سر الآخر .. وحطت من شجرة الجميز حمامة بيضاء تلتقط ما تناثر من فتات بينهما .. فأخذا يقضمان خبزهما وملحهما فى احساس غامر بأن الله .. يباركهما .. وأنهما أطفاله . فى الأرض وفى كل ملكوته !!!

المحاكمة

قاعة المحكمة مكتظة بناس ذوى أشكال وأحجام مختلفة ..لاشئ مشتركا بينهم سوى شراهة الفضول .. وأنا قابع فى القفص الحديدى أحك جرحا ملتئما فى ساعدى الأيسر ، واتأمل وجوههم بشتى الانفعالات البادية عليها وهم يحملقون فى بشراهة حتى لأتوهم نفسى كائنا قذف به الى الأرض أحد الأطباق الطائرة.

نظراتهم تعرينى .. تبدو وكأنما توشك أن تنقض على وتفترسنى ، نظرات دائبة بعضها تطل منه الحيرة ، وبعضها تنطق بالفضول .. بعضها يرثى لى .. وبعضها لا يكتم العداء.. وامرأة بدينة أخرجت ثديها المترهل من فتحة جانبية فى ثوبها المتسخ وطفقت تلقمه رضيعها الملفوف فى « قماطة» الذى تناثرت عليه « ريالته» .. وتهمس فى أذن جارتها الصغيرة بكلام غريب يتحدث عن الخديعة . و« المقلب» الذى شربته . والقلوب التى تحجرت فى هذا العالم.

مقلب .. وخديعة .. عن أى مقلب تتحدث المرأة البدينة ؟ خدعت.. ربما .. أخدوا يخدروننى بكلماتهم الضخمة . الشرف .. العار .. التقاليد .. كرامة العائلة .. رجولتى .. وواجبى .. أن احتمال

اعدامى لايهولنى بقدر ما يعذبنى إحساسى بأنى تخليت عن القيم التى كنت أفخر بها .. ومن أجلها واجهت الكراهية والعذاب . كيف استجبت لهم هكذا ببلاهة ؟ كيف ؟؟

وأزاحت المرأة البدنية فم رضيعهل .. ما زالت النظرات تلاحقنى .. وددت لو كان بيدى سيخ ملتهب أفقأ به جميع تلك العيون المصوبة نحوى كأنها فوهات بنادق.

لماذا لاينتهون .. ؟ وما فائدة كل هذا .. قتلتها واعترفت .. فما جدوى أن يعرضونى هكذا لعيون الآخرين بنظراتهم المسعورة ؟

قتلتها .. سلوي .. أختى المبدعة الفاتنة .. القلب الذى كان يعطينى الحب .. والحنان والمشاركة .. قتلتها بوداعتها وصباها .. كيف بيدى انتزعت كل هذا منها ؟ هالنى الأمر فى البداية وهم يعرضونه علي .. ترددت .. أنا تعرض على هذه المهمة؟ غريبة .. من أين جاءتهم الثقة فى أننى سأوافق .. منذ متى كنت رجلا فى نظرهم ؟ .. دائما يعتبروننى « خرعا » لايصلح لمواقف رجولة .. دائما كانوا يبعدوننى عن مشاكلهم ومعاركهم مع العائلات المنافسة لأننى فى نظرهم لا أصلح الا لتمشيط شعرى .. وقراءة المجلات .. دائما كانوا يسخرون من طراوتى التى تشبه سلوك بنات الذوات .. عندما كنت صغيرا أذهب الى الحقول مع أطفال العائلة كان أبناء أعمامى يعايروننى كلمّا وجدونى قد أستغرقت حالما أصغى لخرير المياه فى الجداول .. أو أربت بيدى فوق رؤوس الكلاب بينما يمارسون العابهم

العنيفة ويتربصون ببنادقهم للذئاب فى حقول القصب .. أو يقومون بعمليات سطو على الحقول المجاورة ليسرقوا البطيخ .. أو يتلفون زراعة من يختلف الكبار معهم.

حتى « جليلة) صغرى بنات عمى الأكبر كانت تمسك بخصلات شعرى « وتنكشها » فى سخرية لتؤكد بأننى تماما أشبه أمى .. نعم لم يكن أحدا ينادينى أبدا باسمى .. كانوا ينادوننى على الدوام بقولهم «ابن سميرة» ابن أمى .

فمن أين أتتهم الثقة فى أننى يمكن أن أصبح بطلا هكذا بلا مقدمات لأقتل وأختى بالذات .. وهم يعلمون فرط حبى لها وشغفى بها .. قلت لهم أننى لا أستطيع أن أكون قاتلا مهما كانت الأسباب .. وقذف بها حسن ابن عمى متهكما .. ألم أقل لكم .. كنت أتوقع ذلك .. « ذيل الكلب لايمكن أن ينعدل أبدا» .. حضرته لايصلح الا لكتابة المواويل .. ولكزه عمى فى جنبه معترضا .. وانطلق يردد الاسطوانة .. العار .. كلام الناس .. شرف العائلة .. وواجبى .. فليس هناك من هو احق منى بازالة هذا العار .. وترددت .. أختى وليالينا .. والعشرة وقلبها الذى يحتوى أفراح انتصاراتى .. وأشجان هزائمى .. أى جنون سول لى الموافقة .

كانت مستقلية فوق فراشها وتحت رأسها وسادة يتمرغ فوقها شعرها الفاحم المتموج وقد أستغرقت فى قراءة قصة مترجمة من تلك القصص التى كانت مشغوفة بها .. ودخلت عليها بهدوء وأنا أغلق الباب خلفى وأحاول السيطرة على أعصابى .. لأبدو طبيعيا بينما

سوس التردد ينخر فى مشاعرى .. نظرت إلى وحسبت الأمر مجرد هموم صغيرة كتلك التى تعودت أن أفضى اليها بها.

* مالك يا وجدى .. تبدو مكتئبا ؟

* ابدا يا سلوى .. لاشئ .. مجرد صداع .. أقرأت الرواية .. « مدحت» عاوزها .. سألنى عنها.

* أوشكت تقريبا .. على فكرة مدحت تصرفاته تبدو غير طبيعية هذه الأيام .. ما الذى يغضبه .. لم يعد يزورنا ؟

أكد لى تهافت نبراتها فى سؤالها عنه .. ووميض اللهفة الذى يشع من عينيها عندما سمعتنى أذكر اسمه صدق ما زعموه لى عن علاقتها به .. أن الخطابات التى وقعت فى أيديهم هذه الخطابات لاتؤكد وجود علاقة آثمة .. انها تتحدث عن الحب والأشواق وأحلام الغد .. وعندما قلت لهم هذا ثاروا فى وجهى .. حب .. ومنذ متى كانت عندنا بنات تحب .. وأخذوا يؤكدون لى بأن قرار قتلها وأفقت عليه العائلة بأجمعها .. وأن مهمة التنفيذ اذا كانت قد القيت على عاتقى فلأنى أجدر العائلة بذلك .. وأن عارها يلحق بى قبل أى واحد منهم .. فاذا أمتنعت فليس معنى هذا أن يبطل القرار .. فالبلدة كلها تتهامس بالفضيحة .. وأين يمكن لرجال « عائلة الشرقاوى » أن يخفوا شواربهم سينفذ القرار قمت بالمهمة أم أبيت . وفى هذه الحالة ستعلن العائلة أنها تبرأت منى .. لا ياحسن .. لن أدعك تقتلها يا حسن .. لن أدعك تشفى غليلك منها لأنها رفضت بشجاعة وكبرياء أن تتزوج

من وحش مثلك .. لا يا حسن لن تكون نظرتك الشامتة المتوحشة آخر ما تراه سلوى فى هذا العالم .. ودنوت منها كأنى أنظر الى أية صفحة وصلت فى قراءتها وفجأة وفى جنون ولأحسم التردد الذى بدأ يخرب ارادتى أمسكت بخصلات شعرها والى الخلف لويت رقبتها .. وأغمدت السكين حين النصل فى صدرها .. وتفجر الدم .. الدم .. الجنون .. الأشباح . عقلى .. قوة ما تنتزعه .. طبقات من الضباب تتراكم فوقه .. وسلوى تتدحرج م فوق سريرها .. تتلوى غارقة فى دمها .. وفى نظراتها الجاحظة المشدوهة تساؤل مدهوش . كالعتاب . وبلا حقد .. وأمى تخبط الباب الذى أحكمت رتاجه حتى تكسره .

* نحن فلاحون يا أمى .. وصعايدة .

* عملوها معك يا ابنى .. يا خراب بيتك يا سميرة .. سلوى .. حبيبتى .. كبدى أنا أمك يا حلوة .. كلمينى يا سلوى .. ردى على ماما يا سوسو .

واحتضنتها بالدم تبكى وتصرخ فى التياع وتمزق .. وتعفر رأسها فى بلاط الحجرة الذى اصطبغ بدمها .. وتطفر من أعماقى أشباح .. فأجرى ملتاثا .. مهبولا .. ثم أعود لأتهالك على الجسد الراكد فى دمه وقد سكنت تماما اختلاجاته .. أقبله .. الثغر .. الوجنات .. الشعر .. الصدر .. فى جنون .. ثم أنهض وأجرى من جديد وأعود لأخبط فى الجدار رأسى .. وتتزايد الضجة ولا أعود أشعر بشئ .. عربة البوليس تقلنى والقيد فى رسغى .. وصرخات أمى تلاحقنى ..

وعويل الجيران .. والأشباح .. وأختى غارقة فى دمها.

* * *

والذكريات .. موت أبى برصاصات معادية أطلقها عليه أحد خصوم العائلة انتقاما لثأر قديم .. والكراهية التى كانت تواجهنى من عائلة أبى الذى تزوج برغمهم من قاهرية غريبة أحبها وهو يطلب العلم فى الأزهر تاركا ابنة عمه التى كانت مخطوبة له .. كانوا يكرهوننى لأننى ابن هذه الدخيلة .. وأمى التى تعذبت من أجل أن تصمد لمؤامرتهم .. وأحلامى .. وزملائى فى الجامعة الذين كانوا يسخرون منى . من « صعيديتى» وتحفظى وانطوائى .. والبنات اللواتى كنت ارتبك أمامهن وينز وجهى عرق الخجل لو سألتنى أحداهن عن موعد المحاضرة .. أو طلبت منى أن أعيرها كراستى ، والقصائد كنت أكتبها وأبثها ذوب روحى .. وغربتى .. وزميلتى المحررة بمجلة نسائية فى نفس الوقت والتى كانت حلم عمرى ولكنى أضعتها بخجلى وتحفظى وخوفى من جرأتها المتحدية .. والكتب التى كنت أعيش معها أكثر من الحياة . كانت الكتب عالمى .. والأغنيات التى كنت اسمعها بكل ذرة فى كيانى والدموع فى قلبى .. وليلى مراد .. التى كنت أعشق صوتها واتخيل أننى سألتقى بها ذات يوم وتحبنى .. مع أغانيها كانت روحى تجد دنياها.

ودلفت الى « العنبر» كان مليئا بالمساجين من أعمار متفاوته .. وقبعت فى صمت تحت جدار بدون أن ألتفت اليهم .. وهرع الجميع يسألون ما خطبى .. كنت تائها .. سلوى بدمائها كانت أمامى ..

* يبدو .. أنه من أبناء الذوات .. قالها أحدهم وابتعدوا عنى.

فى الليل أنطلق المساجين يتغنون بمواويل عن أدهم الشرقاوى .. وحسن ونعيمة .. ثم أنزوت كل « شلة» فى ركن تثرثر حول « التعيين» .. والشاويش عبد الباسط والبنت ذات العشرة أعوام التى أخذت ثأر أبيها.

ويسألوننى / احك شيئا .. قل حاجة .. وربك يفرجها ولا أجيب.

* افرد وجهك .. السجن للرجال يا روح أمك ..

ها .. ربما كان يظنه السينما ..

قالها سجين أعور .. ومن جديد ابتعدوا عنى.

أعرف أيها الأعور . لكن أعفنى من رؤية وجهك.

واندفع الحاجب يهدر .. « محكمة » فى انتفاضة متشنجة لامبرر لها اطلاقا .. وتطلع الجميع الى المنصة ما عداى .. كنت مشغولا أحدق فى وجه المرأة البدينة وهى تتجول بنظراتها القلقة ما بين هيئة المحكمة والقفص الذى يحتوينى .. غريبة .. لم أهتز ، لم أنتفض لرؤية هيئة المحكمة .. ربما لأننى وطنت نفسى على كل الا حتى رات نظرت إلى القاعة وقد وفد آخرون .. ينهم أعمامى .. عمى الأكبر .. هذا العتل الأشيب بذقنه الكثة .. وسبحته .. كم سأبغضه .. حج بيت الله الحرام ثلاث مرات ويقتل القتيل ويسير فى جنازته . لقد عذب أمى كثيرا بكبريائه وتعاليه .. لم يغفر لها ابدا أنها تزوجت أبى برغمه .. عمى .. أنا على استعداد لأن أخلد فى الجحيم مقابل أن يدعونى الآن

انتف ذقنه هذه .. شعرة .. شعرة .. وأمى أمى لماذا لم تأت ؟ لماذا ؟ .. انى أحتفظ بدموع لا أريد أن أذرفها الا عندما تأتى ..

وقام رجل غليظ الأنف .. صارم الوجه وظل يتكلم طويلا عن الجريمة ونذالة دوافعى اليها .. والضحية البريئة .. الزهرة المثقفة التى سحقتها بخسة قربانا لمطامعى في التركة .. ثم انطلق يتلو تقرير الطبيب الشرعى مؤكدا بأن فعلتى لايمكن أن يكون الانتقام للشرف هو سببها .. ولهذا فانه يناشد المحكمة فى الا تأخذها بى شفقة .. لم يحنقنى عليه كونه طالب بإعدامى ..

أنها مهمته .. مورد رقاب للسيد عشماوى .. غاظتنى منه حذلقته .. وضغطه على كلمات ضليعه معينة .. وكونه دأب ينظر إلى طيلة مرافعته وكأننى فى نظرة لا أكثر من حشرة.

وأمر الرئيس باحضارى الى المنصة وأخذ يستجوبنى وأنا صامت كأنما يوجه أسئلة الى انسان لايعنينى .. وغاظه برودى فأخذت لهجته تشتد وصوته يتوتر فى حنق..

وأخيرا ولمجرد أن أتخلص من الموقف قررت أن أقول شيئا ..

* « كل ما أعرفه أننى قتلتها .. قتلتها .. لأرث التركة وحدى .. دبرت الأمر على أن تظل الجريمة مجهولة .. لم يكن فى خاطرى أن صرخات أمى ستأتى بالجيران » .. وسرت فى القاعة همهمات ناشزة.. ودنا منى المحامى يهمس فى أذنى بأن هذا التصرف من جانبى بمثابة الانتحار .. ليكن .

وعـدت من جديد الى الفقص .. المرأة البـدينـة تنظر الى فى دهشـة واشـفـاق نظراتها الحـائرة تقول لى .. أنت تكذب . فلمـاذا؟ ما الذى يدعـو هذه المرأة لأن تحـملق فى هكذا ؟ .. ولست إبنهـا .. ولا حـتى أعرفها ؟ لقد عشت لا أبغض شيئا قدر أن يرثى لى أحد حتى أمى . كان يغيظنى اشفاقها المفرط .. ومعاملتها لى وكأننى شئ هش تكسره هفوة .. وعندما نهض المحامى الكهل الموكل للدفاع عنى تمنيت لو أن أطلق العنان لرغبتى فـانطلق مقـهـقـهـا .. ثمـة شئ يثير الضحك فى منظره وهو يقف بجسده النحيل .. وعنقه الذى نفرت عروقه وروبه المتـهـدل .. وقد أطلت من وجـهـه الشـاحب كـآبة تندّر بالعـالم كله .. وأخذ يترافع مناشدا المحكمة بالأ تلقى بالا الى اعترافى الأخرق .. حقا اننى قتلتهـا .. ولكـن الأمر ليس كـما أقول هو الطمع فى استحـواذى على التـركـة .. لأن الطريقـة التى ارتكبت بهـا الجـريمة من السـذاجـة بحيث لاتتناسب أبدا مع تفكير مجرم طامع يرسم خططا .. واستطرد يقول بأنـنى قتلتهـا وأنا مسلوب الوعى .. وكنت ضحيـة مؤامرة .. وانطلق يحمل على أعـمامى مؤكدا بـأن الانصاف يقتـضى بأن يكونوا هم الآن فى القـفص وليس أنا .. فقـد اقنعونى بعـلاقـتـهـا التى لم تكن أكـثر من حب عـفيف بين شاب جامعى نـبيل وفتاة مثقفـة تواجـهـهـا تقـاليـد عفنة وتنمـو حيـاتها خلف أسـوار من قيم عطنة ....اقنعونى بهـذا بدافع لحـقـد المتـأصل الذى يكنونه لنا .. ليـضـربوا عـصـفـورين بحجر واحد تموت هى ويكون السجن مصيرى أنا .. وانسان فى مثل شـاعريتى وحساسيتى.. سيدفعه تكوينه لامحالة الى الانتحار .. أما

الأم أيسر الخلاص منها .. وبهذا تقع التركة الضخمة جاهزة فى أيدهم..

« أهذا هو المقلب الذى كانت تتحدث عنه المرأة البدنية .. كيف غابت عنى هذه الحقيقة .. كيف لم تخطر على بالى .. لم يكن فى خاطرى أمام تصميمهم الا أن مسألة التقاليد هى التى تدفعهم . كيف غابت عنى هذه الحقيقة .. كيف ؟ ..».

واستطرد المحامى يواصل دفاعه .. لقد استغلوا احساسى بأنى كنت دائما موضع سخريتهم لعاطفيتى ورقتى .. فعرضوا على دور بطولة استجببت له بلا وعى ولا افهم .. حيث انطلقت كل الرواسب القديمة. كل العقد .. تسوقنى من الداخل لأرد اعتبارى فى نظرهم ولو بالجريمة مبررا فعلتى أمام نفسى بأنها ستقتل حتما فمن الأفضل أن تقتل بيدى .. ونهضت أطالبه بأن يغلق فمه .. لايهمنى أن يظهرنى فى وضع الجبان الذى أراد أن يكون بطلا فى نظر الذين كانوا يعايرونه برخاوته ..

لايهمنى ذلك .. فهذا لم يخطر على بالى .. ثم انها مسألة تخصنى .. ولكن كيف يؤكد للمحكمة فعلا علاقة أختى بحبيبها .. أو غير بريئة مهما كانت هذه العلاقة بريئة ؟ .. هنا لايعرفون علاقات بريئة .. لأأريدهم يعتقدون بأن هذا هو سبب مصرعها .. أهون عندى أن أموت من أن تلوك الألسنة شرف سلوى .. ولم يهتم المحامى باهانتى وانطلق يضرب على نفس النغمة .. ومن جديد طلب منى الرئيس أن

أتقدم .. وتكلمت .. كذبت كل ما قاله المحامى ..

مصرا على أن الدافع فقط هو الطمع فى التركة.

وعاد المحامى يوضح سبب اصرارى هذا .. ثم قدم للمحكمة دفتر مذكراتى الذى كنت أرصد فيه انطباعاتى ومشاعرى من الاذلال الذى كنت أعانيه من أبناء أعمامى منذ كنت صغيرا .. وفى المدرسة .. وفى المجتمعات لاحساسى بأن ثمة شيئا فى سلوكى يثير دهشة الآخرين .. وقد وضع خطوطا حمراء تحت العبارات التى كتبتها فى فترة الصراع النفسى التى سبقت الجريمة وهى تؤكد فى نظره دور أعمامى فيها .. والدوافع المتشابكة التى ساقتنى لقتل الانسانة التى أعبدها .. وختم مرافعته مناشدا المحكمة بأن تضع كل تلك الملابسات فى اعتبارها .. ورفعت الجلسة للمداولة.

عزم على الشرطى الأسود الذى يقف ببندقيت أمام قفصى بسيجارة فاعتذرت شاكرا .. مازالت المرأة البدنية تنظر نحوى وتوشك الدموع أن تطفر عينيها .

أمى .. لماذا لم تأت أمى .. لماذا؟

وعادت هيئة المحكمة .. ونطق الرئيس بالحكم الذى يقضى باداتنى عشر سنوات مع الاشغال لأن المحكمة وضعت فى اعتبارها الظروف المحيطة بالجريمة.

عشر سنوات .. فى السجن .. زايلتنى رباطة جاشى .. شعرت بالانهيار والضياع .. عشر سنوات يطاردنى دم سلوى .. وتهمس فى

أذنى .. « مالك يا وجدى» عشر سنوات .. أمى .. لماذا لم تأت ؟ غفرانك يا أمى قتلتها لك ولست مجرما .. وانطلقت دموعى .. والمرأة البدينة .. منذ لحظات كانت نظراتها تلدغنى .. الآن أريدها .. تقول لى نظراتها بأن هناك من يشفق على ويتالم لمصيرى .. والتقت عيناى بعينها ، كانت الدموع تنهمر على خدها .. والرضيع يمتص ثديها ..لكم أود أن أعانقها .. أن أغفو عن ضياعى لحظة واحدة بين أحضانها .. ودنت تهمس فى أذنى :

* ولدى .. الله معك .

* سيدتى .. لست مجرما .

* أنا لا أفهم شيئا .. ولكن .. قلبى يقول لى هذا جاء عمى فى هذه اللحظة .. وعندما اقترب من القفص كانت بصفتى قد تناثرت رذاذها فوق ذقنه كرغوات صابون صغيرة ..

* سيدتى ..هل تعرفين أمى .. قولى لها أن تغفر لى .. نظرت الى طويلا وانخرطت تبكى.

* يمكنك يا ولدى أن تعتبرنى أمك .

نظرت اليها وفهمت .. لم أجد دمعة واحدة .. امتدت يد المرأة تلامس جبهتى .. وفتح الحارس القفص وأخرجنى ودفعونى الى عربة كانت فى الانتظار.

أمينــة

« العالم لايخلو من الناس الشرفاء ..

فقط يحتاج إلى عملية ترميم لإصلاح

ما أفسدته الظروف فيهم ..»

(جوركى)

الحياة فى صعيدنا جافة ، قاحلة ، متاشبهة أيامها .. وراكدة بدون ما تجديد يزيل رتابتها أو تغيير يضفى طرافة عليها .. وهكذا كنت أنفق حياتى فى تلك البلدة النائية فى الصعيد .. وأخصب فترة فى حياة بلدتنا .. وأحفلها بالبهجة والإمتاع تلك التى تحتفل فيها بمولد (أبو على) ولى الله ذو السر الباتع .. فتمور بالنشاط والصخب .. والحركة ..

ولاغرو أن تحتفى بلدتنا بمولد (أبو على) إذ يندر أن يوجد فرد فى بلدتنا له ليست تجربة مع ولى الله تؤكد أنفاسه الطاهرة الماثلة فى (كراماته) المتوالية .. ! بل أمى ذاتها .. أمى المثقفة التى لبثت ثمانية أعوام لاتلد. تزعم مخلصة مؤمنة بزعمها .. بأن الفضل فى إنجابها يعود لولى الله .. فلا يكاد يفد يوم الجمعة من كل أسبوع حتى

تصطحبنى وأخوتى إلى مقام ولى الله .. وتظل تتمسح فى الضريح فى ابتهال وضراعة .. ويلوك فمها عبارات التوسل المتهدجة .. فى خشوع ورهبة .. مما يجعلنى أستشعر خوفا مبهما .. ورغبة فى مغادرة المكان .. وما أكاد أفعل حتى أتنفس فى ارتياح..

وما انفكت بلدتنا تلوك أسطورة زاعمة بان مأمور المركز حاول ذات موسم أن يعطل المولد لما يقترن به من جرائم الثأر والنشل فكان أن جمح به الفرس والتوت ساقه .. فطفق يصرخ ضارعا متذللاً (سامحنى يا أبو على شهدت لك يا رجل الله) وبغتة نهض سليما .. ليس هذا فحسب بل ركض الفرس وأخذ يتمسح بالضريح .. وانطلق الجمع المذهول المغبوط يردد : شهدنا لك يا أبو على .. وتعالت زمجرة الدراويش ! .. وتطاولت رقاب ذوى الذقون ..

لايقتصر الإحتفاء بتلك المناسبة عى بلدتنا وحدها .. بل تشاركنا الاحتفاء بها بلاد أخرى .. مجاورة .. ونائية .. فيفدأهالى تلك البلدان فى مواكب ضخمة .. هائلة .. مسلحة !.. فهذا يهتف : جرجاوى يا بيه .. وذاك يصيح : دشناوى بيه .. ومنين يا ولد .. قناوى يا بيه .. على حسّ البيه .. وكل موكب يحمل نذوره من الخرفان المرصودة لتلك المناسبة .. والجديان .. والعجول أحيانا .. فلا عرو أن ترقبت بلدتنا تلك الفترة فى لهفة وتأهبت لها قبل حلولها بأسابيع ..

وكنت منذ حداثتى شغوفاً بالذهاب إلى المكان المأهول الشائع الذى

يحف بمقام ولى الله حيث تقام حلقت الأذكار بترنحاتها المهبولة .. ودراويشها .. وأناشيدها .. وحيث التمس البركة من « الشيخ رشوان» عميد الطريقة الرفاعية وهو يوزعها على مريديه « وبداياته» وحيث تلك الضجة المتناهية التى تجذبنى إلى دوامتها .. لم تكن الأذكار بطرافتها وحدها هى التى تجذبنى . فكم كنت شغوفا بافتراش الأرض بجوار الآلاف لأنصت « للشاعر » بحدثنا بمصاحبة» الربابة عن ملاحم أبو زيد .. وصراعه الخالد مع الزناتى خليفة .. كان أبو زيد مثل البطولة فى نظرى .. والرجولة الكاملة .. فكنت أتعصب له وأود من أعماق قلبى أن يتغلب على خصمه الزناتى .. وكنت أصفق بجماع مشاعإى عندما ينتفض الشاعر فى حركة تمثيلية مفتعلة تبدو طبيعية لفرط تكرارها وحذقها ثم يهتف « أبو زيد أبو شال على القرن مايل .. شهر سيفه .. وكالوحوش راح مايل على خليفه» ..

كان هذا هو ما يدفعنى فى حداثنى إلى الذهاب إلى المولد أما بعد ذلك فأكثر ما كان يغرينى بالذهاب هو رغبتى فى مشاهدة « التياترو» بحيواناته المدربة . وتمثيله الطريف .. وفتياته ذوت السيقان الملفوفة المتناسقة .. «و البلياتشو » بوجهة الدميم القمئ المدهون بمختلف الأصباغ .. وتهاويله .. وأفاعيله .. وخفة دمه ! كنت وقتها ساذج القلب ، نظيف الوجدان .. تشكل حياتى أحداث رومانتيكية واجهتها صغيرا . كات إمتداداتها تفرز فى قلبى الرقة .. والإرهاف .. ولم أكن واجهت الجوانب العتمة فى الحياة بعد .. إذ لم تكن سهام الغدر والخسة توالت على قلبى .. يفعم قلبى الإيمان بالإنسان .. وأحبّ أن

أعيش فى بساطة وأن أمارس حياتى فى شرف .. ينبض قلبى بحب الناس حتى لكان هذا القلب يحتضن العالم كله .. الكون بأسره . تشمله بسمة . وتعذبه آهة ..

كان يروق لى أن أندس بين كواليس التياترو .. أستطلع خفايا حياة أهله .. « سنية » الضخمة المترهلة .. بصدرها المكتنز الهائل .. وكرشها الضخم المتكور .. ومشيتها التى تشبة الأوزة .. وتلك «اللبانة» التى اترقع فى فمها ولاتغادره أبدا .. وفتنة» اللعوب التى تخطر فى مشيتها المتهادية ذات الغنج بفستانها المشجر .. «وشبشبها» المزوق وقرطها الكبير المتدلى من أذنيها .. كانت تخطردوما فى دلال متميع .. ويغدق عليها فتيان البلدة ومراهقيها وأعيانها .. « مناديل» العنب والمانجو وعديد البرايز .. و« حسنة» زوجة البلياتشو بدمامتها الفاضحة .. وحقدها وحديثها المتكرر عن أمجادها عندما كانت تعمل فى « سيرك الحلو ويتهافت عليها العشاق ! .. ولست أدرى أى عشاق هؤلاء الذين يتهافتون عليها !! .. من يدرى ربما كان للدمامة عشاقها كما للجمال عشاقه .. !

و« أمينة» قاطعة التذاكر بأحزانها البادية عليها .. وهمومها .. ووسامتها المترعة التى تشوبها غمامات حزن دفين غامض يرتسم بوضوح على محياها الأبيض كالقشدة .. وينبثق من أغوار عينيها . ويلوح دوما فى نظراتها .. وتقطيبها الدائم .

وسهومها وحديثها الذى لايفتر عن زوجها المصدور نزيل المصحة

الحكومية .. ووليدها الصغير الجميل الأشقر .. بشعره المتدلى على جبينه كمايسترو عبقرى موهوب .. والذى لاتنى تقبله حتى فى غمار انهماكها فى تأدية عملها :

كان أصحاب التياترو وكل من يعمل فيه يعرفوننى جيداً .. يعرفون وضع عائلتى بمكانتها فمنها نائب البلدة وعمدتها .. وبعض رجالها يشغلون فى الحكومة مراكز خطيرة .. يعرفون أن عائلتى إذا خاضت معركة فلابد أن تسفر عن أكداس من الجرحى .. وسيول من الدماء وباسم هذا كانوا يسمحون لى بدخول التياترو ومعى « شلتى» بلا مقابل .. وباسم هذا أيضا كان من حقى أن أفرض نفسى على كل الذين يعملون فى السيرك بدون أن أثقل عليهم ! .. إذ لم تكن عنجهية أولاد العائلات وغطرسة أبناء البيوت .. ولم أكن أسبب متاعب لأحد كما يفعل أبناء عمومتى ..

حتى نساء التياترو كن يثقن فى .. فهذه « بيسه» لا تجد حرجا فى أن تكلفنى بكتابة خطاب غرامى ساخن إلى عشيقها فى دمنهور رغم أنها زوجة رسمية لعاطف مدرب الخيول وهذه « أم عليه » تداعبنى دوما وتعدنى بأن« تكبر» لى مديحة أبنتها الجميلة أو « قطتها » كما كما تدعوها لتناسبنى ! ..

وهذا « عم عثمان » المتخصص فى دور « البربرى» لايكف عن تقريعى أبدا ونصحى بالمذاكرة والاقلاع عن « الهيافة» والمسخرة ويدعونى :« الولد البايظ .. اللى مش نافع البيضة الفسدانة » كل هذا كان طريفا بالنسبة لى سيما أنه يخول لى أن أكون عن كثب من

أمينة . . « فتاة الشباك » كان فيها شئ ما يجذبنى ويأسرنى . قد يكون هذا الحزن الغامض المرتسم على محياها . . وأنا إنسان نمت حياتة فى وجه مقاومة ! ولاشئ يضغط قلبى قدر منظر إنسان حزين ! . . وقد تكون نظراتها تلك التائهة المغلفة بهذا التشاؤم المرير وريبتها فى الناس . . وشغفها بوليدها . . هذا الشغف الذى يكاد يصل حد التقديس . . وتمسكها بكرامتها واعتزازها بها فى إفراط . . فكل فتاة فى السيرك نالها « الفتوات » وأبناء العائلات . . ماعدا أمينة . . لم يستطع أعتى « فتوة » أن يخدش كرامتها بكلمة !. .

كنت أستشعر سعادة ثملة عندما تبتسم لى أمينة . . وتداعبنى بسخريتها اللاذعة وتلمح إلى عينى « المايحة » على تسميحة ثم تردف : « كان غيرك أشطر يا حدق لسه عليك بدرى . . عينى عليك باردة !. . ولكنها أيضاً كانت تحنو على وتثق فى . . فأحدثها دوما عن حياتى المحزونة . . وعن المأساة المزمنة فى بيتنا . . وعن قسوة أبى وفظاظته . . وإهماله أمى . . وجفاف حياتى من الحنان . . واحساسى بالغربة . . وافتقارى إلى إنسان يفهمنى . . وكانت هى تحدثنى طويلا عن حياة طبقتها تلك المستباحة . . الضائعة . والمصير المحزن الذى يتلقف أمثالها فى النهاية . . ثم عن أحلامها بالنسبة لوليدها « اللى ها يطلع دكتور » . . !

وشعرت بأنى أحب أمينة . . أحبها فى شغف وإفراط ! . . فقد كان قلبى متأهبا دوما وفى قابلية مذهلة لعبادة أى إنسان يحنو عليه . . وكنت أكتم هذا الحب لأنى أعرف مصيره . . وكثيرا ما ألح على قلبى

فى أن أفضى لها بحبى الكظيم فيكبح الخجل رغبتى .. ثم خوفى من أن تحتقرنى أو تستهين بحبى فتعزوه إلى نزوة مراهقة .. كذلك كان يعقلها الإحساس بفجوة الفارق بين وضعى وحالها ..

ولكن لم يكن بوسع قلبى أن يظل أخرس إلى النهاية فقد صممت ذات ليلة على أن أبثها ما يعتلج فى قلبى .. وتحينت فرصة «التشطيب» فدلفت إليها فى « كشكها » وفى دخيلتى تمور شتى المشاعر وثمة صراع يدور فى أعماقى ..

حدقت فيها طويلا .. ثم ابتدرتها أمينة ..

لفظت اسمها فى صعوبة .. وهممت بأن أتكلم .. ولكن الكلمات احتسبت فى حلقى ! ..

- مالك يا سى عبده ؟ .. ولم أجب .. فأردفت :

- فيه حاجة مزعلاك يا عبده .. أنت باين مش طبيعى أبدا .. حد مزعلك ؟..

إتكلم يا حبيبى !

وانتفض قلبى لسماع الكلمة الأخيرة رغم أنها كثيرا ماكانت تنطقها فى معرض الحديث معى !

ولكنها من قبيل العادة .. ليس إلا !

- أبدا مفيش حاجة بس أنا عايز أقول .. يا ريت كنت أختى يا أمينة !..

كان هذا كل ما استطعت أن أعبر به عن حبى . . !

حدقت فى بحنان وامتدت يدها تداعب شعرى المنكوش فى لمسات حادبة ثم قالت :

ما أنا برضه أختك يا عبده . . أنا شاعرة بكده . . إن جيبت للحق يا عبده أنا بكره الناس . . أيوه . . لو عرفت أنا عشت وعايشة إزاى ما كنتش تستغرب من الكلام ده . لكن مش عارفة ليه أنا حاسة بالنسبة لك بإحساس غريب . . غير إحساسى بالناس . . يمكن . . وقبل أن تلفظها انساب إلينا من بعيد صوت ليلى مراد تشدو بأغنيتها الحالمة « يمكن با أحبك » وانزلقت من فم أمينة نفس الكلمة : يمكن بحبك . .

ليس بوسعى سبر غور مشاعر فى تلك اللحظة . . كل ما فعلته أننى قبلت يدها . . وركع قلبى يصلى لها . . لإنسانة إرغمتها التجربة على أن تكره الناس فلما وجدت نموذجا مغايرا أحبته ! . .

ـ أنا سعيد يا أمينة فى منتهى السعادة . . عمرى ما لقيت حد يحبنى . . مع أنى باحب الناس كلها . .

ـ لكن أسمع يا عبده . . فيه حاجات كتير مش عاجبانى فيك . . ثقتك فى الناس دى مش كويسة . . كمان شوية العيال دول . . اللى عاملين صحابك . . وبيستكردوك . . تفتكر لولا فلوسك كانوا يسألوا عنك ؟ الناس وحوش يا عبده . . طيبتك دى عاتضرك بعدين . .

ـ لا يا أمينة أنت غلطانة خالص فى نظرتك للناس . . الناس يا أمينة طيبين . . بس الظروف هى اللى بتفسدهم وتخليهم وحوش . . وتموت

إنسانيتهم .. وكل الحاجات الجميلة فيهم الحاجة يا أمينة والظروف .. وكمان تصرفاتهم المحزنة دى نتيجة حتمية لحياة تقوم على الصراع والتكالب والاقتناء والخوف من العوز .. ومن المجهول .. تفتكرى لو الناس عاشوا فى بساطة وضمان لأقواتهم .. ومصائرهم كانوا يبقوا بالشكل ده ؟! صحباتى دول شبان لهم مطالب وعايزين يستمتعوا بإمكانيات شبابهم .. وظروفهم متساعدهمش .. يعملوا أيه ؟ .. لازم يتلموا على واحد رى حالاتى غنى يستكردوه .. وينافقوه .. ويخادعوه .. أنا شاعر بكده لكن غصب عنهم .. الظروف يا أمينة !! كمان أنا بالشعر بسعادة لشعورى بأنى أبذل !!..

ـ أنت طيب خالص يا عبده التجربة بعدين ها تخليك تكفر بالكلام ده.

* * *

لم يكن فى خاطرى أبدا أن أية تجارب مهما كان بوسعها أن تجتث من نفسى نزوعها هذا الإنسانى الذى يضئ حياتى ويمدنى بإحساس غامر بأننى إنسان .. ولكن هذا الإنسان الذي كنته مات وأهالت عليه الأحداث التراب .. فقد سافرت أمينة ولبثت تكتب لى بضع أسابيع ثم انقطعت كتابتها إلى .. ولم يعد التياترو فى الموسم التالى ولا الذى يليه .. وفى خلال تلك الفترة حدثت أشياء كثيرة جعلت كل ما يحتويه وعائى يتبخر ويدوب ويمتلئ هذا الوعاء بالمواد التى كنت أنكرها من الناس .. فقد أصبحت وحشا يسخر من الإنسان الساذج الأبله .. المخدوع الذى كنته فيما مضى ..! ولم أعد أصدق ما كنت

أقرأه فى الروايات .

لقد دهمتنى التجربة وتهاوت القيم الجميلة المضيئة التى كان يقتات منها قلبى .. ووطنت نفسسى على أنه لكى أعيش لابد لى من مخلب وناب والإحساس بأننى فى غابة . وفعلا تشكلت نفسيتى بهذا الإحساس الذى لم يعد مجرد نظرية اعتنقها بل فعاليات تتحكم فى كل تصرفاتى .. الفتى المثقف الطيب . أصبح عميلا لأكثر من حانة .. وأبونا لأكثر من بيت سرى .. وعشيقا لاكثر من واحدة من ذوات الخدور !..

كل ما يهمه هو أن يحقق ما يصبو إليه بأى ثمن ! .. وبأية طريقة.. الفتى الوديع الذى كانت تكاد تبكيه خطرات النسيم أصبح فظا . شرسا . مشاكسا . لايطاق . لقد تغير تماما ..! كل ما يهمه هو أن ينتقم لفترة من عمره عاشها ساذجا .. مخدوعا .. « كروديه» ..!

وذات صيف وفد التياترو إلى بلدتنا وكانت هذه فرصة لإشباع مباذلى .. كل فتاة فيه أصبحت تخشانى بعد ما كن جميعا يتهافتن على ويداعبننى .. فلا تكاد تنفضى ليلة بدون معركة . وكل راقصة لابد أن تدفع لى إتاوة نظير عدم معاكستها والسماح للزبائن بإعطائها « النقطة» ألست ابن أقوى عائلة ؟!

وأمينة .. لشد ما تغيرت .. حزينة دوما .. ساهمة فى كل الأحايين ..دامعة .. مهمومة .. وإن كانت وسامتها ما انفكت مترعة ! .. فقد مات زوجها فى المصحة .. وابنها الجميل الأشقر اللى ها يطلع دكتور

وكما تغيرت أنا .. تغيرت نظرتى إلى أمينة .. فى الماضى كنت أحبها فى سذاجة .. الآن أصبحت أشتهيها فى جنون ! .. ورغبة محمومة .. ولكنى أبدا لم أستطع امتلاكها .. حاولت بالدهاء .. وحاولت بالقوة .. وحاولت بالفلوس .. وفشل كل سلاح أمام صلابتها .. هالها التغير المريب الذى طرأ على نفسيتى واجتاحها فأمات كل الاشعاعات المضيئة الى كانت تنبثق منها .. وذات ليلة كنت ثملا و« فتنة» ملتصقة بى فى وضع مبتذل مثير .. ومرت أمامى أمينة وفى وحشية قذرة ناديتها :

ـ خدى يا بنت أنت تعالى .. بوسينى .. ولم تعرنى التفاتا وواصلت سيرها .. وغاظنى هذا ونظرت إلى « فتنة» ساخرة . لقد تعودت أن طلب ويتحقق ما أطلبه ! .. فكيفتجرؤ هذه وترفض وفى تهور انتفضت واقفا وجذبتها نحوى أحاول تطويقها فى عنف .. وهى تقاومنى بعنف أيضاً .. ومن فمى تنهال شتى الأوصاف الموبوءة ..

ـ فاكره نفسك مين .. إن كان على ولدك بسيطه .. تقدرى تعملى بداله .. ومنى أنا .. !

ما كدت أتفوه بتلك العبارة حتى احتقن وجهها وطفح الحقد المرير على ملامحها وبدت مثل لبؤة ثكلى .. وفى جنون بصقت على وجهى.. ليس هذا فحسب بل شرعت يدها ولطمتنى .. وأدركت هول ما فعلت فوقفت مشدوهة .. ذاهلة .. حائرة تنتظر .. !

أمينة تبصق على وتلطمنى .. إنها إهانة .. غير عادية .. هذا ما أدركه الجميع وتوقعوا مصيبة وتقدم الجميع منى يعتذرون .. فى ضراعة .. وسيدفعون الثمن ..! سيفصلون أمينة ..

وفى تلك اللحظة لم أكن أنا أفكر فى بصقة أمينة وصفعتها كنت أستعرض حياتى .. وأندب إنسانا مشرقا كنته ..! لقد أفقت .. بلطمة .. وادركت مدى وحشيتى بالنسبة لإنسانة .. محزونة .. ضائعة .. أين عبده الفتى الطيب المشحون كيانه بالإعداد لقضايا بشرية أمن بها وأزمع أن يدافع عنها ؟!

وأحسست بمشاعرى المطمورة تتبلور .. وتطفو .. ومشاعر مغايرة تتوالد فى أعماقى .. وفجأة ركعت أمينة تحت قدمى وهى تنتحب .. إنها لقمة العيش .. ما أبهظ عنها ! ..

ـ أنا متأسفة يا بيه .. كا كانش قصدى ..

وكأنها قديسة .. أمسكت بكفها ولثمنها .. مثل ما فعلت مرة .. عندما كنت إنسانا ..

ـ أمينة أنا حاسس دلوقتى أن فيه قوة بتصفعنى .. سامحينى يا أمينة .. أنا مكنتش كده وها أرجع تانى .. عبده بتاع زمان !..

ـ « أنا كنت متأكدة من كده .. وفاكرة كلامك عن الناس الطيبين اللى الظروف بتفسدهم » .. خرجت وثمة إنسان جديد يولد فى أعماقى وأشعر به ينمو .. وفى سبيله لن يكتمل ..!

رجـل لفرنسـا

الليل هاجع إلا من رفيف نسمات أشبه بالهمهمة الخافتة عندما تحتك بأغصان أشجار السرو المنبثة فى فناء الدير . فتوقظ فى نفس الراهبة « إنجيلا » أحاسيس غامضة متلهفة وأصداء مبهمة لماض ما دخلت الدير إلا لتسلوه وتنبذه خارج وجودها .. فهى لم تلذ بالدير إذعانا الرغبة مؤمنة فى أن تهب حياتها خالصة للسماء ..!! وما كان لها أن تقبل حياة الدير الموحشة الرتيبة لو لم تكن هاربة .. هاربة من ماضيها .. وحبها وذكرياتها .. إنها امرأة تريد أن تنسى .. تنسى حبها الذى وأدته الحرب .. وتنتزع نفسها من نفسها التى انغمست فيه بكل وجود الأنثى .. ولاذت بالدير علّها تسلو م وراء جدرانه .. باحثة عن السلام بين تراتيل الراهبات وطقوس العبادة ..

ولكن النسيان المأمول الذى قدمت شبابها وربيعها وأنوثتها وعزها ثمناً له أبى أن يواتيها .. وهى الآن رهينة عهدها مع السماء ونهبا لانفعالات الماضى .. وليس بوسع هذا العالم المحدود المغلف بأواهام السلام أن يفصلها عن هذا الماضى . إنها أسيرة فطرتها الإنطلاقية مهما حاولت .. فى نوبة يأس ألقت بنفسها فى غمار الحياة التى لاتلائم ميولها .. حياة ضللتها الفجيعة عن أن تفطن لجمودها وخوائها

ورتابتها .. وها هى نفسها الأصلية تطفو فوق سطح شعورها .. أرقة مكروبة ينفلت فكرها إلى ما وراء عالمها هذا .. ترى ماذا فعلت الحرب بفرنسا ؟ وأى حياة تعيشها الآن باريس المرفهة المدللة ..؟ ألا زالت تنبض بالحياة وتموج بالمرح وعلى أرضها المهزومة تدق أقدام أجلاف النازى..

وأين يرقد الآن جثمان « فرانك » بعدما التهمته المعركة المسعورة .. إنها لاتعرف إن كانت الأرض التى سفح من أجلها دمه قد حنت عليه فاحتوت جثمانه أم أن كواسر البرارى قد نهشته وما أكثر ما نهشت من جثث أشبال فرنسا .. وعندما انسابت ذكرياتها إلى فرانك أكتنفها الشعور الفادح بالفجيعة وهاجت أشجانها المكبوتة الغافية .. وتوقدت فى روحها جمرة الهوى المشبوب وزرف القلب منها دموعا ضلت طريقها إلى العين فتولدت اهتياجا ..

كانت طالبة بالجامعة ربيبة بيئة أرستقراطية مترفة .. لاتعرف من الحياة سوى الاستمتاع الشره المتسم بالخواء الوجدانى المجرد من كل مثل إمسانية .. حياة خاملة منحلة يغمرها فراغ مجرد .. حياة الترف المبتذل المنفصل عن معايير الحياة ومواضعات البشر .. العلم فى نظرها ترف عقلى تكتمل به رتوش بيئتها كل ما يعنيها أن تغازل الطلبة وأن تستمد من كونها جذابة ومعشوقة شعورا بالتفوق على لداتها فى عالم الأنوثة كما هى متفوقة فى مكانها من الكيان الاجتماعى .. فهى لاترى الحياة إلا من زاوية خاصة تكتنفها أضواء خادعة تشع من قيم طبقتها .. حياة كل ما يقال فيها أنها ـ رغم كل شئ ـ تافهة مزدولة ..

وأن كانت فطرة إنسانيتها الغافية خلف سديم ملابسات البيئة تمدها أحيانا بأحاسيس متهيبة مبتورة لم تحاول أن تكشف عنها وتعيها ..!!
وكانت تراه دائما تشاهد فرانك وهو يروج لمذهب إنسانى براق ويبشر بعالم جديد ويسهب فى شرح نظريات سياسية واقتصادية وفكرية .. لاتفهم مدلولها .. ولاتفقه مغزاها .. وماذا يعنيها هى من الفن والفكر والإنتاج ومصادر الدفع الثورى .. فهو دائما لاحديث إلا عن عالم الغد .. العالم المتماسك الذى يرتكز على أساس وطيد من تضافر المجموع والعمل المشترك .. فهو فى المدرج يتصيد أية ثغرة ينفذ منها إلى التبشير بعالم الغد .. وفى الفناء ينتحى بشلة من الشباب المتهوس يجادل ويناقش ويدحض ويفند .. بغير أن يثور أو ينفعل .. وكان يغيظها انتصاره الدائم عقب كل لجاج ينشب ..

وكانت صديقتها الجريئة « سوزان» تنكت عليه وتدعوه «البرجوازى المتمرد » أما هى فلم يكن يروق لها حديثه هذا ولا تعيه .. وأن كان يروق لحواسها الذواقة التى تعرف كيف تهضم شيئا آخرا فيه .. يروق لها هذا الغموض السحيق الغور المنبعث من مرآة عينيه .. بل يخيل إليها أن وراء غطاء العين الشفاف عالما قائما بذاته تنطلق منه أصداء تذوب فى النظرات المندفعة دائما نحو المجهول .. وكان أكثر ما يغظيها منه أنه لم يغازلها أبدا .. قط لم يتملق فتنتها .. أبدا لم تره يتوقف ريثما يمنحها نظرة مبهورة أو حتى معجبة .. بل يمضى فى سيره وكأنها شئ تافه لايستحق أن يوليه نظرة .. أن كل الزملاء غازلوها ولهثوا خلفها .. وقد احتدمت فى صالة الرقص ذات ليلة معركة بين

ابن لورد إنجليزى وبين زميله الفرنسى لأن كل منهما يريد الرقصة الأولى .. بل أنى إن استاذ الأدب الرومانى قال لها وقد نسى وفارق وتحفظه إنّي أراك فى جمالك الفذ المسبى أشبه بخالبة الرومان «كليوباترة» وردت عليه فى نهكم لاذع ..» ولكنى لا أراك أنطونيو يا مسيو أندرية» فلماذا يتجاهلها فرانك من دون الناس مع أنها تعترض طريقه وتتصدى له فى تعمد وإغراء ..؟! .. أن الغيظ يكاد يخرجها عن طورها ويغريها بتصرف أهوج يلفت نظره ولو على حساب كرامتها ..! كيف يتأبى عليها وهى التى دأبها أنتمتلك ما تريد .. الامتلاك قانون طبقتها وناموس تربيتها وطابع حياتها .. وأى إنسان فى نظرها مثل قبعة طريفة راقت لها فتاقت لامتلاكها ..

وأرادت ذات مرة أن تستفره فقالت مداعبة متظرفة :« متى تتحقق جنتك الأرضة يا مسيو فرانك ؟..»

وأجابها فى برود :« قبل أن نصل إلى الجنة يجب أن نخوض جحيم الصراع ..»

-صراع ... ضد من يا مسيو فرانك.

-ضد أعداء الحياة ..

-ومن هم أعداء الحياة فى نظرك ؟

-ليس الآن مجال الحديث عنهم ..ثم أنى اعتبرك منهم .

-أتتخرف يا مسيو فرانك ؟

- ربما ولكنى لا أجيد تغليف الألفاظ .. وكذلك فن مخاطبة الفاتنات .. معذرة نسيت أنى أخاطب أجمل وأشيك حواء أنجبتها فرنسا ..! قالها وأولادها ظهره وتركها وحدها ذاهلة .. إنها أول كلمة إطراء تسمعها منه ورغم ما فيها من سخرية بادية غمرتها بخدر لذيذ .. آه فرانك بدأ يغازلها ..!

لولا حياء الأنثى للحقت به لتقول له فى إخلاص متجاهل لسخريته .. « أحقا تجدنى كذلك يا .. فرانك » وبدأت تغزو قلبها لانفعالات جديدة .. غامضة ومسيطرة .. أتراها أحبت هذا الطائش ..؟ ربما ..! ولم لا ..؟ ولكن كيف السبيل إليه وليس بوسعها أن تلوى عنان الكبرياء المصنوع من الوراثة لتتمسح فيه .. ولكن شريعة الحب سخية ..!! فها هى تتصيد الثغرات التى تتسلل منها إلى التقرب إليه والاندماج فى محيطه .. ولكى تؤهل نفسها لمستواه الفكرى التى على نفسها أن تطالع نظرياته التقدمية .. ويلتهم عقلها الذى شحذه الحب كل ما تلفظه أفواه المطابع من فكر يبشر بعالم الغد .. عالم فرانك .. هاهي تناقشه .. وتحاوره .. بل أكثر من ذلك تورطت وأخفته - هى وريثة أسهم الصلب والمطاط - فى قصرها الريفى عندما تعرض لمحنة طارئة ..

- « بربك لماذا فعلت كل هذا من أجلى وكل الظواهر تهيب بك أن تفعلى العكس ..؟ ..« وهل يهمك أن تعرف ..؟ - : طبعا - « فعلت هذا لأنى آمنت بعالمك وبجدارة مذهبك وعندما يؤمن الإنسان بعقيدة من الطبيعى أن يبذل لها .. ثم أنى .. أنا .. أنا أحبك يا فرانك ..

وارتجف كمراهق تستدرجه غانية مجربة ..

- : « قبل أن تتفو هى بهذا الاعتراف .. كان عليك أن تفهمى نفسك وتغوصى فى دخيلتها .. إن دعامات الحب هى تفاهم الروح مع الروح وتجاوب الفكر مع الفكر .. وتآلف الشعور مع الشعور .. وما عدا ذلك من انفعالات طارئة مموهة فهى رغوات زائفة تتولد من التركيب الحيوانى فينا .. وتزحف نحو القلب فى دهاء مضلل .. وأشعة العقل هى التى تفطن إليها وتبيدها .. التى تفطن إليها وتبيدها .. هناك هوة سحيقة تفصلتى عنك وستنأى بك عنى .. تفكيرى يغاير تفكيرك نظرتى إلى الحياة لاتتفق ونظرتك إليها .. لى مثلى ومبادئى .. لى فكر وعقيدة .. لى حياتى .. وأنت ماذا لك ..؟ أنا أصنع حياتى وأنت تعيشين حياتك كيفما تجدينها .. أما زعمك الإيمان بمذهبى فهو وهم جسمه لك شئ لايّمث للإيمان بصلة..

- لا يا فرانك أنت تشتط أحيانا .. ليس هناك ما يزعمنى على قول ما أنكر أو أن أتسرع بدون أن أتحقق .. أنا أو من بك وبما تؤمن به وها أنا أمامك شكلنى كما تشاء .. اصنعنى كما تريد .. هبنى كتلة من صلصال أغمس بها بصماتك وأخلقها التثمال الذى تريد .. ستجدنى بين يديك عجينه مطواعة .. على استعداد لأن أهجر ترف حياتى وأعيش معك بين المغاور والكهوف .. امرأة غريبة تتكلم .. تغاير كل التغاير الأنثى التى كانتها من قبل .. مؤمنة وعاشقة ..صادقة ومستعدة.. تفجر فى أعماقها الإحساس الفطرى المستمد من طبيعه إنسانيتها .. كان راسبا قطفا ومبهما فاتضح ..

ـ :« أى انتصار رائع فذ لفكرة عالم الغد أنت تنضوى أنت ـ بالذات ـ تحت لواء دعاته .. صدقينى لقد أحببتك ـ أنثى ـ منذ أمد بعيد .. ولكن الفاصل الشاسع كان يحول بين هذا الاعتراف وها قد تدانينا . وها أنا أحب فيك الإنسان كما أحببت المرأة .. فهات يدك من أجل فرنسا .. ومن أجل العالم بأسره .. وعسى أن لاتندمى ذات يوم ..»

وأحست بانفعال يسبق البكاء وكادت تطفر دموعها ولكنها تماسكت وفى ضراعة هتفت :« فرانك أيها الحبيب كيفما تريدنى سأكون».

ولكنها كانت قد استقبلت هناء الحب والولاء للتقدم فى غمرة الوقت الذى بدت فيه بوادر المذبحة .. بل ها هو البركان ينفجر وتنشب الحرب بعد ما تأزم الموقف ولم تعد مندوحة عن استعمال السلاح ذى الحدين .. وها هو فرانك يخوض عباب المعركة .. بدافع من مبادئه وولائه للديمقراطية .. وللوطن أرض الآباء .. وما كانت هى أقل منه رغبة فى البذل وسرعان ما هرعت إلى إحدى الجبهات فى لباس الممرضات تحنو على أكداس الجرحى وأنصاف الموتى وتوالت أنباء تقهقر الجيش وبدت طلائع الهزيمة فى الأكداس البشرية المهيضة التى تحملها عربات الصليب الأحمر .. وذات ليلة ناعبة .. تلتقط النبأ الأليم من فم زميل لها عاد من المعمعة مبتور الساق .. لقد سقط فرانك..

وسقط بعده شعورها بالحياة وماذا يربطها بالحياة غيره ..؟!

ماذا بقى لها ..؟ إذا كان من الجبن أن تنهى وجودها فإنها لم تعد راغبة فى هذا الوجود .. ولاذت بالدير .. علها تنسى .. ولم تنسى وعندما وصلت إلى هذا الحد من ذكرياتها استغرقت فى بكاء كاد يمزق نياط قلبها .. وتطلعت إلى تمثال العذراء أمامها وهى تهتف .. « ارحمينى يا أم هبينى سلامك يا بتول..»

(٢)

لم تعد فرنسا هى فرنسا .. فالهزيمة التى حاقت بها نفثت فى أرجائها سحب الكآبة ونضت عنها ثوب الجمال .. وباريس الأنيقة ذات الأضواء الباهرة والربيع المتجدد لم تعد هى الأخرى باريس ذات مراتع الهوى ومجالى المرح .. لم تعد تسمع فيها غير التراتيل الحزينة تنعى مجدها الآفل .. وعويل أجراس الكنائس يشق أجواز . الفضاء مؤّبنا أشبال فرنسا .. وفى كل قلب لوعة وفى كل بيت مناحة .. إنها فرنسا الضائعة وبرهانها تلك الفرق من جنود الألمان تجوب باريس وتجوس خلال ميادينها فى خيلاء .. معلنة أن السيادة قد غدت من حق الجنس الآرى وحده وعلى العالمُ أن يعترف بعظمة الدم الأزرق ..

ولكن إذا كانت فرنسا الجيش قد سلمت .. فإن فرنسا الشعب لم تعترف بالهزيمة وكيف يجرع كأس المهانة شعب قام بأسمى ثورة فى تاريخ الإنسان .. ها هى جماعات المقاومة السرية تتشكل لتمحو عار الانحدار .. وكل منزل أصبح بمثابة وكرتدار فيه مؤامرات تنظيم المقاومة .. ونصب العيون وملء لقلوب الشعار الباسل « حتى أخر

رجل وأخر امرأة».

وكما فقدت فرنسا سلامها . فقدت الراهبة إنجيلا سلام نفسها هاهي ساهرة واجفة القلب مقروحة الجفن لم تستطع أن تنسى الماضى ولا أن تهضم نهج حياتها الحالى .. وذات ليلة تناهت إلى سمعها قرعات ملهوفة متعجلة تطرق باب الدير فى إصرار ملح .. ومن بعيد يختلج فى الفضاء صهيل خيل تركض فى خبل قد ألهبتها حمى المطاردة .. وانفرج الباب الصفيق ودلف منه شاب ملثم يلهث من الإنهاك ويكاد يخور فى إعياء وتفهم الأم الرئيسية جلية الأمر فتحول دون سقوطه ..

ويطلب الوافد من إنجيلا أن تأتيه بجرعة ماء وبدلا من أن تتحرك تظل فى مكانها صامدة قد ارتج عليها وقد اعترتها رجفة .. إن نبرة هذا الصوت ليست غريبة عنها .. ولكن أتراها تحلم .. لقد مات .. مات فرانك .. ولم تتحرك إلا بعد أن عاود الكرة .. وقادته الأم إلى غرفة الضيوف .. ولبثت إنجيلا الليل بطولة أرقة مضناه .. يا الهى أية مشاعر غريبة.

تلك التى استغرقتها ..

وفى الصباح تذهب إليه بالأفطار كما تعود الدير أن يفعل مع ضيوفه .. وما كادت تخطو داخل الغرفة حتى تسمرت فى مكانها مشدوهة .. إنه فرانك .. وما خابت حاسة السمع لديها .. وفى غمار المشاعر المتضاربة المتشابكة التى ولدتها المفاجأة نسيت وضعها كراهبة

وجرت نحوه ذاهلة .. ثم ارتمت على صدره العريض ..

ـ أهو أنت يا حبيبى قالوا التهمته المعركة ..؟

ـ لقد حوصرت فرقتى وأبيدت لآخرها وأنا الوحيد الذى اخترق الحصار بوسائل تنكرية وهمت على وجهى بين السهول والوديان وعندما بلغت باريس كانت فرنسا راكعة .. ثم عرفت النبأ .. عرفت أنك هنا .

ـ وهل الحياة بعدك إلا هباء ..؟!!

ـ ما كان يجب أن تتنكرى للمبادئ التى زعمت الإيمان بها .. وكان هذا الإيمان يقتضى أن تبذلى حياتك من أجلها وأجل فرنسا فى اتعس وأحزن فترة من تاريخها .. كنت أحسب إن إيمانك بعالم الغد وفهمك لفسلسفة الوجود قد خلصك من أحاسيسك الفردية وأمدك بمفهوم جديد للحياة .. وإذا بالحياة فى نظرك تضيق وتنكمش ثم تنتهى بمجرد انتهاء حبيب مات ..

ـ هذا الكلام قد فات أوانه .

ـ كلا بل يجب أن تعودى لمبادئك ولفرنسا .. إن هذا الرداء لا يلائمك .

ـ لقد انتهى وجودى بالنسبة للحياة عندما ارتديت هذا الثوب الذى يعلوه الصليب لقد نذرت نفسى للسماء وليس بوسعى التنكر لعهد قطعته بمحض إرادتى .

ـ أبدا لم تكون حرة الإرادة .. فقد أعمتك صدمة فقدى .. عن فهم حقيقة ميولك .. وزجت بك فى غمار حياة لاتتفق وهذه الميول .. صدقينى أن فعلتك هذه خداع للسماء ..

ـ خداع !!

أجل .. فإن فجيعتك التى هولتها لك الأنانية هى التى سولت لك دخول الدير فرارا من الهواجس . هل كنت تفعلين ذلك لو اختلف الوضع ..؟ ثم أن السماء لاتروق لها فعلتك .. لأنها تريدك أن تلقى بجماع نفسك فى أتون المعركة .. المعركة ضد الغزاة .. وكل قوى الظلام الهدامة التى تسيطر على على دنيانا وتشوه معالم الجمال فيها .. ولكنه الجبن سول لك الفرار .. وفعلتك والانتحار سواء .. فما الفرق بين إنسان ينهى وجوده وبين آخر يمنع عن الحياة وجوده .. أن العبادة الحقيقية هى أن تبذلى للحياة .. وتساهمى فى امتدادها .

ـ أصمت .. أصمت .. أنت تجدف ومهما حاولت فلن يغرينى منطقك بأن أتبعك .. أنى أعرف سلفا أن إيمانك بالسماء مسألة فيها نظر .. نعم لك إيمانك بالإنسان .. وولاؤك للتقدم ولكنك تؤمن بالتفسير المادى للوجود .. وأخالك ترى أن الإيمان بالقوة الخارقة التى تسيطر على الوجود خرافة .. أجل أنت لاتعترف بالله يا فرانك ..

ـ يبدو أنك مازلت تفتقرين إلى فهمى أن قوى الظلام تسخر إيمان البشر بالسماء فى خدمة مصالحها ..

وطال النقاش وتشعب وغمرها طوفان من الأفكار وجذبتها دوامة من المشاعر .. إنها تؤمن بمنطقة .. لقد هربت من الحياة عندما فقدته

وها قـد عـاد .. ولكنهـا رغم هذا يجب أن تصـده هكذا أرادت لهـا الأقـدار.. وليس من اللائق أن تتملص من ميثاق أبرمته مع السماء بمحض إرادتها .. إنها مشدودة الوثاق إلى الدير برغمها ..

ـ فرانك ! مهما يكن من أمر فقد فات الأوان .. أذهب لحياتك ودعنى لحياتي .. ليرعاك المسيح .

ـ إذن وداعا يا أخت ! ومهما يكن من أمر فسيظل الشعاع المتوهج المنبثق من أغوار عينيك يضئ لى مسالك الحياة وأنا أخوضها مساهما فى صنع المستقبل .. وداعا ..

وما كاد يخطو خارج الدير حتى انكفأت فوق صورة العذراء تقبلها وقلبها يضرع وهى تردد .. امنحينى السلام يا أم .. وباركيه يا بتول..

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
المقدمه	٥
للكتاكيت أجنحة	٢٣
قابيل يخنق القمر	٢٧
وسادة فوق القمر	٤٧
يوحنا الامريكى يبشر بالحانه	٥٧
الساعة الـ ٢٥	٦٧
قاتل لوجه الله	٧٩
بئر الأحباش	٩١
بلاخطئية	١٠٥
أطفال الله	١١٥
المحاكمة	١٢٣
أمينة	١٣٥
رجل لفرنسا	١٤٧

إصدارات القصص

نفرو للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	المؤلف
ثالثاً. القصة :	
البريونى يتجه شرقاً	سعيد رفيع
العودة إلى جويال	سعيد رفيع
حروف متشابكه	حياة الحصرى
لينا والبرتقال	سليمان نزال
رائحة المطر	منى سعيد
يوحنا الأمريكى يبشر فى الحانه	عبد العال الحمامصى